علاء الدين المدرس

صور العذاب في المعتقلات السرية

برزخ العالم الثالث

مذكرات سجين... معاناة المعتقلين في تسعينيات القرن الماضي

دار الرقيم للنشر والتوزيع - بغداد

١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

كُتبت هذه المذكرات داخل الزنزانة وطبعت بتاريخ ١٠/١٠/١٩٩٥م
ثم طبعت سنة ٢٠٠٣م بكمية محدودة، وأخيراً طبعت بشكلها النهائي سنة ٢٠٠٥م

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد ١٦٩٨ لسنة ٢٠١١

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وإذ يَمْكُرُ بِكَ الذين كَفَروا لِيُثْبِتُوكَ أو يَقْتُلوكَ أو يُخْرِجوكَ ويَمْكُرُونَ ويَمْكُرُ اللهُ واللهُ خَيْرُ الماكِرِين﴾

سورة الأنفال/ ٣٠

الإهــداء

- إلى الإنسان في كل مكان ليتعرف على ما يجري لأخيه الإنسان في العالم الثالث.. وفي عالمنا العربي اليوم.
- إلى جمعيات ومنظمات حقوق الإنسان ودعاة الحرية والسلام في العالم.
- إلى المفكرين والحكماء والسياسيين وعلماء الدين..
- إلى الفنانين والتشكيليين العرب.. عسى أن تثير هذه الصور الأليمة المعروضة في الكتاب، في نفوسهم وضمائرهم الحماس والحمية، ويحولوها إلى لوحات ساخرة، لردع كل ذي سلطان أن يستعبد الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً، تحت مختلف الذرائع والأسباب..

نُهدي هذه المذكرات.

مــقــدمــة:

يُعد أدب السجون أحد الألوان الأدبية المشوقة التي عرفها الإنسان وتفاعل معها، وهو أدب يمزج بين الوجدان والواقعية، ويسلط الضوء على عالم مظلم، وزاوية معتمة من زوايا النشاط الإنساني. كما إنه يكون أحياناً أحد ثمار الظروف الصعبة التي قد يتعرض لها السجين فتنطلق في نفسه بعض المشاعر والطاقات الكامنة لتعبر عن مكنون ما في الروح المنفعلة والنفس المعذبة من مشاعر وأفكار بشكل أدبٍ متميز ذي مادة غزيرة لا تقل أهميةً عن الآداب والفنون الأخرى ..

والكتاب الذي نقدّمه بين يدي القاريء الكريم والموسوم (صور العذاب في المعتقلات السرية أو برزخ العالَم الثالث) محاولةٌ واقعية لتسجيل مذكرات سجين، كُتبت في زنزانة من زنزانات أجهزة الأمن في إحدى دول الاستبداد والقمع في الشرق المقهور، حاول الكاتب أن يستعرض بعض الصور المؤلمة، وأنواع الظلم والعذاب الجسدي والنفسي الذي كان يرزح تحته السجناء في ذلك السجن الخاص، وأن يخاطب أخاه الإنسان خارجَ أسوار المعتقلات والسجون، ويحذره من أن تهوي به رياح الظلم إلى ذلك المكان السحيق، ويطالبه أن يمارس دوره ويضغط بقوة على مراكز القرار الإعلامية والسياسية للتأثير على ذلك السلوك المستهجن والتعامل اللا إنساني

الذي يتمثل ابتداءً في مصادرة الحقوق الإنسانية للإنسان، ثم ظلمه وقهره لأتفه الأسباب، وفي الاستجابة لهذه الاستغاثة وذلك النـــداء نكون قد ساهمنا في إزالة المنكر الذي شاع بين الناس والظلم الذي يعاني منه معظم الناس دون أن يحاولوا إزالته ، دفاعاً عن الإنسان وكرامته، باعتباره خليفة الله في أرضه، ودفاعاً عن الحق والمبادئ في حياة البشر، ومحاربة الظلم والباطل وأتباعـــه ممـــن أطـــاعوا النفس والشيطان، وتسلطوا على الرقاب في غفلةٍ من الـــزمن فـــي شرقنا الحبيب وعالمنا العربي المنكوب بجهل أبنائه وظلم حكامه إلا ما شاء الله منهم.

وقد يسأل البعض عن مكان تلك الأحداث التي يسردها الكاتب، غير أن المؤلف لم يشأ الإشارة إلى المكان أو كشف الستار عنه، مبرراً رأيه أن تلك المظالم والانتهاكات التي تعرض لها هو ورفاقـــه قـــد أصبحت سمة مشتركة لمعظم معتقلات الشرق[١]، فيما يسمى معتقلات أجهزة الأمن السرية. فيكون عدم التحديد أبلـــغ فـــي إدراك الغايـــة المرجوة ومحاصرة هذا الداء الذي يعاني منه ويئن من ثقله مئـــات

---

[١] حين كتبت المذكرات داخل الزنزانة لم يكن بوسعي ذكر أسم العراق، لخشيتي من أن ينكشف أمرها ويزداد وضعي سوءً في السجن. ولقد هممت بنشرها في عهد صدام، بعد خروجي من السجن مباشرة، غير أن العديد من الأصدقاء نصحوني بالعدول عن هذه الفكرة في نهاية عام ١٩٩٥م، فاكتفيت بتنضيدها وطبعها بنسخ معدودة انتظاراً للوقت المناسب للنشر.

الألوف من الناس في دول الشرق والغرب، ومع ذلك فليس من الصعب تحديد المكان الذي شهِد تلك الأحداث والمآسي، من خلال قراءة ما بين السطور. إذاً فهو مرض مزمن وخطير أستحوذ على تفكير الكثير من الحكام، فأنتج الكثير من المحن والفتن والبطش ومصادرة الحريات مقابل الحفاظ على المصالح والكراسي، فانتشر الفساد الأخلاقي والاجتماعي والسياسي في الكثير من البلدان التي عانت وتعاني من آثار تلك الأنظمة المستبدة وإفرازاتها.

سيجد القارئ في ثنايا هذه المذكرات مخالفات كثيرة، وهي مخالفات صريحة تتعارض مع حقوق الإنسان الأساسية داخل تلك المعتقلات، تكفي الواحدة منها لإدانة تلك الأنظمة والوقوف بوجهها وفضحها، كما تصور هذه المذكرات حياة السجين اليومية وآلامه وآماله وأحلامه وصبره وجزعه.. لتحاول أن تأخذ بيد القارئ الكريم إلى داخل ذلك المعتقل ليعيش مع السجين في أدق تفاصيل حياته حتى لكأنه أحد السجناء!..

ولا يخفى إن في استعراض تلك الصور تحذيراً لتلك النظم الفاسدة المستبدة، لتعدل عن نهجها المنحرف وتعاملها المتعسف مع الإنسان، ذلك المخلوق الفريد الذي أكرمه الله سبحانه، ونفخ فيه من روحه، وأهداه جوهرة العقل والإرادة وجعله سيد الوجود ومركز الكون وسخر له كل شيء من حوله.. فكان عزيزاً كريماً على الله، كرامةً أكدتها اللوائح والقوانين الدولية فضلا عن الأديان

السماوية والمذاهب الاجتماعية، ودافعت عنها الأحزاب والجمعيات والمنظمات والدول، حتى أرست قواعدها لائحة حقوق الإنسان المعروفة، وأصبح الاهتمام بتلك الحقوق مقياساً لرقي الأمم والشعوب وسمة أساسية من سمات الحضارة الإنسانية المعاصرة.

في الحقيقة إن مادة هذا الكتاب عبارة عن مذكرات وخواطر وصور منوعة كتبت من داخل المعتقل وفي ظرف استثنائي وعصيب، لذا قد يجد القارئ فيها بعض الخصوصية وعدم وضوح التسلسل المنهجي للأحداث، كالجنوح في عالم النفس والروح والخيال في تصوير مشاعر وإرهاصات المعتقلين وسجانيهم، كما قد يلمس القارئ شيء من التكرار في وصف حالات الجوع والمرض والألم، لأنها كتبت هكذا وفي ذلك الجو وتحت ضغط وهاجس الخوف من اكتشاف أمرها وتعرض كاتب المذكرات وأصحابه للعقاب أو للإرهاب على الأقل، كما كاد أن يحصل مرات عديدة، ونأمل من القارئ الكريم أن يقدر ذلك الظرف وأن يتجاوز الهفوات التي قد يجدها عند قراءته لهذا الكتاب والعيش مع المؤلف في رحلته الطويلة، ومن الله التوفيق.

الناشر

مكتب المختار

٥/ ١١/ ١٩٩٥م

بداية المحنة:

إن محنة الاعتقال التي عشنا أيامها ولياليها، كانت رحلة عجيبة في عالمٍ مجهول، استمرت لأشهر طويلة، وكانت كالقدر القاهر والبرق الخاطف لم نستطع لها دفعاً ولا لعذابها وثقلها رفعاً.

يقول المثل العربي إن الحذر غلب القدر، ولكن أحياناً قد يحدث العكس، ويصبح قدر الله نافذاً فينا رغم الحذر واتخاذ التدابير لتلافي المحن، فالله تعالى يقول: ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها، إن ذلك على الله يسير. لكي لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور﴾[٢]

وقال نبينا ﷺ : (لا يغني حذر من قدر). ومع ذلك ففي ذلك العهد الذي عشنا فيه قصة الاعتقال وأحداثه، كان الرصد والمراقبة للأنشطة الدينية والسياسية أمراً مألوفاً ومفروغاً منه، فعين أجهزة الأمن لا تغفل ولا تنام، شأن كل الأنظمة الاستبدادية المركزية التي ابتلي بها شرقنا العربي المغلوب على أمره. وكان الأمر أكثر وضوحاً مع الاتجاهات الاسلامية المستقلة والمعتدلة، فتارة تكون المحاربة والمتابعات باسم الوطنية والقومية ومحاربة التوجه الديني السلفي أو الطائفي، وتارة تأخذ الشكل المعاكس بمحاربة

---

[٢] سورة الحديد/ ٢٢-٢٣.

الأحزاب والاتجاهات اليسارية والعلمانيـــة المنافســـة والمعارضـــة للحزب الحاكم. وهكذا كان رصد مكتبي جزءاً من هـــذه المتابعـــات والمراقبات الروتينية لأجهزة النظام في حينه، لاسيما وانـــي كنـــت أملك مكتباً طباعياً واعلامياً، كان قد نشر العشـــرات مـــن الكتـــب الاسلامية المعاصرة ذات الاتجاه الوحدوي والدعوي الأصيل. وهي من التوجهات التي لا تنسجم مع منهجية النظام، التـــي لا تســـمح عادة الا برؤية الحزب الواحد والحاكم والقائد الأوحد، التي لا تؤمن باعطاء مساحة من الحرية للناس في الفكر والثقافة والممارســـات السياسية، فهي من المحرمات والممنوعات التي لا يريدها النظـــام وأجهزته المتنفذة. فكان من المتوقع أن لا يستمر عمل مثـــل تلـــك النشاطات التي كان يمارسها مكتبنا في تلك الفترة. وكان لابد مـــن ترتيب طريقة ما للتمهيد لغلقه وايقاف نشاطه النشري والطبـــاعي والثقافي. وهذا ما حصل بالضبط، حيث لم يكمـــل المكتـــب عامـــه الرابع في سنة ١٩٩٤م حتى تعرض مرتين للتفتـــيش والمهاجمـــة ومن ثم الاغلاق. كانت الاولى في بداية العام وفي شهر شباط منه. وبعد التفتيش الدقيق للمكتب والتحقيق مع العاملين فيه عن هويـــة المكتب والنشاط الاعلامي فيه، تم حجزي لمدة أسبوع فـــي احـــدى مواقف أجهزة الأمن، لغرض التحقيق في نشـــاط المكتـــب، وتـــم استدعاء أحد موظفي المكتب للتحقيق معه أيضاً،دون أن يتعـــرض للاعتقال. وتم الافراج عني بعد اجراءات الحجز والتحقيق التقليدية،

وثبوت براءتي من التهم والتلفيقات التي الصقت بالمكتب وعملـــه. أما الثانية فكانت في أواخر ســنة ١٩٩٤م، حيــث تكــرر نفــس الاسلوب السابق معنا ولكن بدرجة أشد، واعتقلت مع أحد العاملين معي لمدة سبعة أشهر تقريباً. وتم تدبير خدعة واتخاذهـا ذريعــة لمهاجمة المكتب ومصادرة موجوداته ورأســماله، تمهيــداً لغلقــه نهائياً. فأرسلت الأجهزة الأمنية مجموعة من الوكلاء، بحجة شراء حاسبات، وبعد الاتفاق على موعد لاستلام الحاسبات وتسليم ثمنها في المكتب، تمت مهاجمتنا من قبل مجموعة مسلحة مــن رجــال الأمن، وصادروا البضاعة والمال وبعض الكتب والاجهزة الاخرى، واقتادونا الى المعتقل في أمن بغداد.

لقد كانت هذه بداية المحنة، وظهر لنا فيما بعد أن هؤلاء الزبــائن كانوا في الواقع وكلاء للأمن، وقد سرقوا جزءً من مــال المكتــب المصادر وسلموا الجزء الآخر مع البضاعة (لجهاز الأمــن) لكــي يصادر[٣]. وبعد اعتقالنا استلمتنا أيادي رجال الأمن!.. واقتادونا إلى الدائرة الأمنية في وسط بغداد، ليفتح لنا ملف ويبدأ التحقيق معنــا ليلاً مكبلين، وكان الموقف غريباً علينا لأننا لم نواجه مثــل هــذه

---

[٣] لقد قام باعتقالنا مجموعة من رجال الأمن وأجهزة النظام السرية، لكون المكتب كان ذا نشاط إعلامي عام، لاسيما في نشر الكتب الإسلامية التي كانت محظورة التداول في التسعينيات. وقد أدى المكتب دوراً اعلامياً تربوياً مهماً في تلك الحقبة الصعبة أمام نشر الثقافة العراقية الهادفة.

الظروف من قبل. ولم تكن هذه التجربة سهلة كسابقتها، كما كنـا نحسب في أول وهلة. وقد مكثنا أسبوعاً كاملاً في ذلك المكان على ذمة التحقيق، ورغم هول الصدمة فقد كان الأمل يساورنا بـالفرج القريب، وكنا نتوقع الخروج في أية لحظة، ونحسـب أن الأمـر لا يتجاوز الحجز والتحقيق البسيط كما في الاعتقال السابق، ولم يكن يخطر ببالنا هذا الدهليز والبرزخ الذي عشنا فيه أشـهراً طويلـة، كتلك التي مرت علينا وكأنها سنين عجاف..

بعد مضي أيام التحقيق الأولى، تم نقلنا إلى زنزانة التوقيف، حيـث المرض والجوع والعذاب النفسي اليومي، وحيث الهياكل البشـرية التي عصف بها الجوع، وكأنها أشجار خاوية في أيـام الخريـف.. وقد أصبحنا مثل أقراننا بعد مدة ليست طويلة. وصيرتنا الظـروف والأحداث المتلاحقة جزءً من هذه المأساة.. مأساة الحرمان من كل ما هو ضروري لحياة الإنسان، فالهزال لا بد أن يصيب كـل مـن يدخل هذا المكان بعد أشهر قليلة.. فقدر الهزال والمرض هنا كقدر الموت في كل مكان، فلابد أن يصيب الجميع دون استثناء!.

لم يكن التحقيق باديء الأمر صعباً أو متعباً، لأن ظـاهر التحقيـق كان حـول نشـاط المكتـب الاعلامـي والتجـاري، والاستفسـار والاستبيان حول الحاسبات وقيمتها والأجهزة الطباعيـة الأخـرى والكتب الاسلامية التي ضبطت في المكتب، وصلتها بنشاط المكتـب وعمله بشكل عام، ومع ذلك لم يكـن يخلـو التحقيـق مـن الأذى

والتعذيب بالضرب واستخدام الكهرباء في عملية التحقيق الروتينية، إذ أن هذا الأسلوب كان جزءً من مكملات الدوائر الأمنية في بلادنا وبلاد الشرق الاستبدادية، وبالنسبة لي فلم يضطر المحقق لاستخدام التعذيب الشديد معي، إلا بضع صفعات قوية! كادت أن تفقدني توازني، فأسقط أرضاً.. ثم شيء من الركل بالقدم.. مع الضرب بقضيب من الخشب (الهراوة) على الظهر، وأحياناً يستخدم التعليق على المروحة السقفية أو الجَلْد وغيرها من الوسائل المعتادة.

لم يكن المحقق يحتاج إلى استخدام التعذيب بالكهرباء في التحقيق معي، لأنني كنت أشعر بأن الموضوع الذي يتم التحقيق حوله معي، كان في ظاهره عادي ولا يشكل خطراً علي وعلى موقفي القانوني، وأن اعترافاتي حول نشاط المكتب الطباعي والاعلامي والتجاري، لا تمثل جريمة قانونية تدينني.. وكنت أتوقع أننا سنخرج بعد مدة قصيرة من التحقيق!! ولكن الذي ظهر أن ذلك مستحيل، فهيهات لمن يدخل هنا أن يخرج بسهولة، فان دخول الحمام ليس مثل الخروج منه..!! أما بالنسبة للآخرين ممن كانوا معي في التحقيق، فقد كان قدرهم أن يواجهوا ضرباً وعذاباً أشد، ربما بسبب التردد والحذر وحسب ظروف القضية والتحقيق لكل فرد منهم.

لم تكن مرحلة التحقيق – بضمنها التعذيب – بالمرحلة الخطرة على كل حال، وإن كانت جديدة لم نعهدها في حياتنا السابقة.. لقد

خاب ظننا في انتظار الفرج حين مرّت الأيام الأولـــى، دون ظهــور أمل بالخروج! وساد شعور جديد بعدها بدأ يستقر في حسنا، هو أن الدولة [٤] حين تمسك أحداً وتودعه دهاليز الأمن السرية بحاجة إلى ما لا يقل عن ثلاثة أشهر لتتعرف عليه! وتعرف من يكون فقــط!! ثم بعد هذه الفترة تفكرّ باستمرار حبسه أو إخراجه، ثم بعد ثلاثـــة أشهر أخرى تفكر بمحاكمته وفق القضية المتهم بهـــا، ثـــم بعـــدها بستة أشهر أخرى تحكمه، وقد يكون الحكم إفراجاً، رغم أنـــه قـــد يكون أمضى سنة أو أكثر، وينتظر ثلاثة أشهر أخرى للمصـــادقة.. وهكذا. وهذا التسلسل هو تسلسل واقعي، وقد حدث للكثيـــر منـــا. فمنا من حكم بالإفراج، أو حكم بسنة أو خمس سنوات أو عشرة أو حكم بالمؤبد.. حتى أقسى حكم معروف وهو حكم الاعـــدام.. وكـــل ذلك كان يخضع لذلك الروتين الأمني القاتل. ولـــيس هنـــاك مـــن يحاسب أو يفكر بحقوق الموقوفين القانونية والإنسانية، لأن ذلـــك كان يحدث بمعزل عن أي رقابة دولية أو دستورية، وإنمـــا كـــان يحكمه مزاج ضباط الأمن وقضاة الأجهزة القمعية العديدة، وغالبـــاً ما يكون التأخير أو هضم حقوق الإنســـان الموقـــوف جـــزءً مـــن البرنامج الأمني لإرهاب السجناء وأهليهم.

---

[٤] أي الدولة في عهد صدام والنظام الذي بناه منذ مطلع الثمانينيات.

كانت الأيام والليالي القليلة التي بدأت معها رحلة العذاب في مركــز الأمن الرئيسي تختلف عن أيام الزنزانة، في ذلك البئر المظلم الذي بدا كأنه مكان سحيق في جوف الظلام.. فقد كان الجو بارداً، ولــم يكن هناك فراش للنوم، أي نوع من الفراش حتى البسيط منه، وكنا خمسة موقوفين في غرفة كبيرة نفترش الأرض ونلتحف الســماء كما يقال، أي أننا كنا ننام في هذه الغرفة ومع شدة البــرد بــدون فراش. وبعد ثلاثة أيام وصلني بعض الأكل والفراش مــن البيــت، وقد وصلنا بعد أن سرق نصفه تماماً، وقد فطنا إلى سجادة الغرفة (موكيت من النوع الخشن) فالتحفناها بعد يومين من البرد، كما كنا نستخدم الأحذية كوسائد، وكان الحمام خارج الغرفة المغلقة، وكنــا نخرج مرتين للحمام وقضاء الحاجة، لمدة محــددة لا تزيــد عــن خمسة دقائق، وفي الأيام الأولى كانت شهيتنا معدومة وأكلنا قلــيلاً من هول الصدمة والمفاجأة، التي لم نســتوعبها إلا بعــد أشــهر عديدة، وهي ظاهرة عامة لكل موقوف في دوائر الأمن مــن شــدة الخوف والرعب، مما ينتظرنا من مصير مجهول [٥] ثم بعد مدة يعتاد السجين على الظرف والعالم المظلم الذي دخله.. فيبــدأ بــالتكيف

---

[٥] تصور أخي القارئ، التناقض الكبير بين حالة الرعب.. وبين الاسم المختار لتلك الأجهزة القمعية (الأمن) حيث يفترض أن تكون هذه الدوائر مصدراً للأمن وليس للرعب كما هو الحال في عموم دول الشرق.

ويضطر للأكل لكي يبقى حياً ويواجه قــدره بشـــيء مـــن الحـــزم والمصابرة.

وفي الأسبوع الثاني من حياة البرزخ وجدنا أنفســنا فـــي موقـــف الزنزانة، وقد كان بعض الحرّاس والعاملين في المعتقل يتندر معنا ويقول: لو ذهبتم إلى الزنزانة لعلمتم أنكم الآن في فندق من فنادق الدرجة الأولى. وكنا لا نصدق هذه المقارنة لعدم وجود أية خدمات في موقف المركز الرئيسي، ولكن ظهر لنا فيما بعد أن هذا الكـــلام صحيح، ويكفي أننا هنا نتحرك بحرية وننام علـــى الظهـــر، حيـــث حرمنا من ذلك في الزنزانة طيلة أشهر الضيافة المجانيـــة، التـــي مرّت علينا بكل قسوتها ومرارتها ببطيء شديد.

لم يفارقنا الدعاء ولا الصلاة في تلك الزنزانة المظلمة، ولم نفتـــر من العبادة حتى واجهنا معضلة المرض الشديد. لقد كـــان برنـــامج الحفظ والدروس الإسلامية والروحية مـــن مميـــزات الحيـــاة فـــي الزنزانة، وهي نشاطات لم تكن موجودة بهذه السعة من قبل. وقـــد كان البكاء على فراق الأحبة لا ينفك عن البعض، في تلك الغرفـــة المظلمة وفي مراحل الاعتقال الأخرى كما ســـنرى فـــي الفصـــول القادمة. ولقد كان البكاء أنيسي وزادي في المعتقل، تماماً مثل أثر الصبر والصلاة. وكنت أشعر بالراحة بعد كل مرة أبكي فيها وأعتبر ذلك عنواناً للرحمة والحنان ورقة القلب. وقد كان الفـــراق والبعـــد عن الأهل والأحبة أهم أسباب البكاء، فضلاً عن الشـــعور بمـــرارة

الظلم الذي وقع علينا، وكان البعض ينتقد ظاهرة البكاء هذه، التي يشاركني فيها بعض السجناء، فكنت أرد عليهم بأن البكاء رحمة، وقد بكى النبي الكريم محمد ﷺ على ابنه إبراهيم. وكذلك بكى النبي يعقوب عليه السلام لفراق ابنه يوسف حتى ابيضت عيناه من الحزن، ولكن بدون اعتراض على قدر الله وحكمه.

لقد كان لذلك الفراق ومرارة الظلم، أثر كبير في استشعار ثقل المحنة، غير أن ألطاف الله سبحانه وكرمه كانت تنفذ إلى نفوسنا نفاذ النور في الظلمة واختراق الضياء للظلام، فتتبدد الظلمة الحالكة ويحل النور والتفاؤل والإحساس بالأمن والاطمئنان محل اليأس والضجر والاحباط والتعاسة. وتفيض الروح بالسعادة وتشرق النفس بالسكينة ويمتلي القلب بالنفحات الربانية من الله العلي البصير، فتمتلئ أرواحنا راحة ورضاً، ونستشعر تأييد الله ونصره لنا بعد كل ضيق نمر به في ظلمات المعتقل، فيسود الأمل برحمة الله والشعور بأنه سبحانه معنا. هكذا كنا نستشعر اللطف والكرم الالهي رغم الظلمات التي تتقلب فيها قلوبنا، من هول صور العذاب التي نراها، وشرور البشر المحيطين بنا، فلا تكاد تجد فيها رقة ولا رحمة، الا من رحم الله من القلة القليلة من السجانين والمحققين وغيرهم.

رحلة الى برزخ مجهول:

لقد كان اختيار كلمة (برزخ) كعنوان للكتاب وفصوله، قد تم في الأشهر الأولى من اعتقالنا، وقبل الشروع بالكتابة، وذلك للتقارب الشديد بين حياة البرزخ وحياة المعتقل هنا، فنحن منقطعون نهائياً عن عالمنا العلوي ولم نعرف عنه شيئاً خلال الأشهر الأولى، إلى أن ابتكرنا طريقة الرسائل السرية إلى الأهل بمساعدة الحرس مقابل شيء من المال. كما أن صور العذاب في المعتقل تقترب من صورة عذاب القبر، إضافة إلى حرمان السجين من أي نوع من أنواع الحرية والحقوق الإنسانية البسيطة.

إنها رحلة في ذلك البرزخ المجهول.. ويا لها من رحلة عجيبة وغريبة، أرادها الله لنا، وقدرٌ شاء الله أن نواجهه بكل جزئياته، وهو ابتلاء واختبار صعب ذلك الاعتقال المفاجئ الذي داهمنا وعشنا أيامه ولياليه بل ساعاته ولحظاته خلال أشهر المحنة، وكان رغم ما يحمل في طياته من صور الظلم والغدر والقهر، يجمع أيضاً بين المرارة والجمال وبين القسوة وظلال الرحمة وبين الصبر والثقة والأمل وبين الجزع واليأس والقنوط.

لقد ابتدأت هذه الرحلة في إحدى ليالي الشتاء وفي أواخر شهر كانون الأول، حين وقعنا في كمين أمني كما أسلفنا.. وتبين لنا فيما بعد ان ذلك كان فخاً مدبراً وضعوه لنا بالتنسيق مع الجهاز الأمني،

للايقاع بي وبمكتبي الاعلامي ذي النشاط الاسلامي المعــروف فــي فترة التسعينيات.. وتم بعدها إيداعنا في المعتقل[٦].

ولقد برزت فكرة كتابة هذه المذكرات في الزنزانة بعد بضعة أشــهر من التوقيف، لهول ما حدث لنا من ملابسات وأحداث ومعاناة يشيب لها الرأس وتدمع لها العين، حيث الذل والإهمال والحيــاة الضــيقة الرتيبة المنسية.. فقد كانت الأيام والأشهر تمرّ علينا ولا أحد يسالُ عنا، بل كنا نعيش تحت كابوس المصير المجهول، في أحد دهــاليز الأمن السرية، وما أكثرها في دول الشرق وفي العالم الثالث، ومــا أبخس الإنسان هنا حين يحيا وحين يموت.

---

[٦] لقد وقع ذلك الحادث في مكتبي في الساعة الثامنة مساءً من يوم الاثنين، بتاريخ ١٩٩٤/١٢/٢٦، حيث جاؤوا إلى المكتب بحجة شراء حاسبات وبعض المواد الأخرى، فجاءت مفرزة أمنية في الموعد المحدد لاستلام الحاسبات، وتم كبس المكتب – كما مرّ ذكره – واقتادونا أنا وأحد العاملين معي إلى مكان مجهول، وتم مصادرة ما وقع تحت أيديهم من المال والحاسبات والأجهزة المطبعية التي كانت موجودة في المكتب، والتي تقدّر قيمتها حينذاك بأكثر من عشرة آلاف دولار، مما اضطرني بعد الخروج من السجن الى غلق المكتب لمدة سنتين ثم تصفيته وبيعه نهائياً، بسبب العجز المالي في رأس مال المكتب، والخسارة التي نجمت عن غلق المكتب وتصفيته، بسبب الاعتقال وتداعياته.

حياتنا في البرزخ:

لقد مرت أيام الشتاء قاسية علينا، ونحن نعيش في مكان عفن ورطب ومظلم وبارد، دون أن تتوفر فيه أبسط الخدمات، كالملابس والأغطية والفراش، وذلك لتعذر الاتصال بالأهل ولعدم تعهد الدولة بتجهيز تلك المستلزمات التي يحتاجها السجين. أما قائمة الممنوعات التي تم ابلاغنا بها فليس لها نهاية. فكل شيء يمكن أن تعمله خارج المعتقل مسبوق هنا بكلمة (لا) والمسموح منه مشروط بشروط خاصة وقاسية.. فلا نأكل ولا نشرب ولا ننام ولا نتحرك إلا وفق سياقٍ فضٍّ وغليظٍ وبرنامج أمني متعب. أما الإهانات والضرب فيمكن أن نتعرض لها لأتفه الأسباب والأخطاء داخل القاعة المظلمة. أما الكثافة العددية للسجناء فهي أمر يقرب من الخيال – وسيأتي تفصيل ذلك لاحقاً – . أما الجوع – وما أدراك ما الجوع – فليس أبرز منه ولا أخطر إلا المرض (أمراض المعتقلات المعروفة)، فالجوع والمرض من أبرز معالم الحياة هنا في المعتقل. يأتي بعدها الكثرة العددية والكثافة الخانقة، ثم العفونة والقذارة والبرد الشديد (شتاءً) والرطوبة والحر الشديد (صيفاً) .. وأخيراً وليس آخراً.. الظلام الذي يحيط بعالمنا السفلي هذا.

ربما يشعر القارئ بشيء من المبالغة في هذا الوصف، ولكنه لا يمثل غير الواقع الصادق الذي رأيناه وعشناه منذ أشهر طويلة، أنه

عالم مظلم صنعه البشر ليعيش فيه مجموعة من البشر لنـــوع مـــن الحياة هي أقرب إلى عالم الأموات في قبورهم، لولا إنهم يتنفســـون ويتناولون ما يسد رمقهم ويجعلهم قادرين على الاستمرار في هـــذه الحياة، وربما يسقط بعضهم فريسة مرض ما، وقد يؤدي بـــه إلـــى الهلاك – كما حدث لبعضنا – إنها قصة غريبة يعيشها إنسان القرن العشرين في سنيه الأخيرة، وليس (إنسان نياندرتال) في العصـــور الغابرة، فيما يسمى بعصور ما قبل التاريخ.

أما الصيف الذي نستقبل أيامه وأسابيعه الأولى حالياً[٧]، فلـــه طعـــم آخر ونكهة خاصة به، فالحر والعرق يصـــبغنا هنـــا كمـــا تصـــبغ البهارات الحارة الطعام الهندي، فلا يتجرعه إلا من اعتـــاد عليـــه، فكيف ونحن لم نعتد على ذلك الحـــر وتلـــك الظـــروف القاســـية.. فيضاعف ذلك الحر حرارة المحنة في الصيف، كما يضاعف المرض محنة السجن في الشتاء، وهكذا تمر الأيام ونحن نعدها عـــداً يومـــاً بعد يوم، بل كنا نحجز لأنفسنا فترة محددة كأن تكون شهراً (مـــثلاً) ونقوم بوضع إشارة على الحائط عن كل يوم يمر، وإذا انتهت المدة حجزنا لأنفسنا فترة أخرى وهكذا.. وكان البعض يستهويهم أسلوب الحجز هذا، لأنه يحمل في طياته الأمل والبشرى فـــي نهايـــة مـــدة الحجز كنوع من الحدس أو الرجاء، وكنا نعيش على أمل الخـــروج

---

[٧] كان ذلك في مطلع شهر حزيران سنة ١٩٩٥م.

لكننا كنا دوماً مستعدون لتجديد المدة، وكانت هذه الطريقة تساعد على سرعة مرور الأيام والليالي الطويلة، وكأنها حبات الرمل في الصحراء.

في الحقيقة إن الاختلاف بسيط بين معاناة الصيف ومعاناة الشتاء، عدا أزمة الجو وارتفاع درجة الحرارة، بسبب الكثرة البشرية. لقد كان حر الصيف في المعتقل لا يطاق، حتى وكأننا في حمام التعرق بالبخار (ساونا).. فيمكنك تصور معاناتنا حين تعلم أننا نقاسي من الحر في الشتاء-أحياناً- بسبب الكثافة البشرية.. فكيف يكون الأمر في الصيف؟!. من حسن الحظ أن توجد مبردة هواء في المعتقل ولكنها للأسف! لم تزود بمضخة الماء، فتعمل وكأنها مروحة، وتبعد عن قاعتنا مسافة تزيد عن (٣٠) ثلاثين متراً، علماً بأن القاعة التي نعيش فيها لا تزيد مساحتها على (٢٠) عشرين متراً مربعاً. ولا تقع المبردة أمام القاعة مباشرةً، ولكن على جانبها، فالهواء يمر بمسار على شكل حرف (U) ليصل إلى القاعة[٨].

[٨] هناك قصة طريفة شبيهة بقصة تلك المبردة، حدثت في زمن هارون الرشيد، إذ يروى في قصص النوادر في ذلك العصر الذهبي لبني العباس، بأن الخليفة كان قد خصص مكافأة مجزية لمن يعبر نهر دجلة سباحةً، في ليلة من ليالي الشتاء الباردة في بغداد. فقرر نديمه أبو نواس أن يدخل تلك المسابقة ليفوز بتلك الجائزة، واستطاع أن يعبر نهر دجلة سباحةً.. ولكنه بعد أن عبر النهر وخاطر بحياته وصحته، حضر أمام الخليفة لاستلام المكافأة، فسأله الرشيد: هل كان حولك في تلك الليلة، جذوة نار أو قنديل

لقد كانت القاعة الأولى بدون إضاءة، فهي مظلمة حتى في النهـــار، لأن أشعة الشمس لا تدخلها طوال النهار، وهي مقسمة إلى قسمين: المحجر، وفيه الحمام وهو بمساحة(ثلاثة) أمتـــار مربعـــة، وفنـــاء القاعة (الغرفة) في الخلف.

لقد كان لضيق المكان والكثافة العددية العالية، الأثر الواضح علـــى ارتفاع درجة الحرارة، وصعوبة المحافظة على النظافة، وبالتـــالي انتشار الأمراض وتردي المقاومة في مواجهة الظروف الصعبة.

أما النوم فله طريقته وأسلوبه في توفير المكان، وتفادي الإشكالات التي تولدها الكثرة، فهو يتم عادة بواســطة التنضــيد المتــراص، والنوم على الجنب، ويقوم مراقب القاعة- وهــو أحــد الســجناء المخول بإدارة أمور القاعة - يومياً بتحديد أماكن النوم وطريقتـــه مع إبقاء نسبة من السجناء واقفين للتناوب مع النائمين بما يســـمى بنظام واجبات النوم، في حالة عدم اتساع المكـــان للعـــدد الكلـــي.. وتسمى طريقة النوم هذه (طريقة السك أو التراص)، وفيهـــا يمنـــع النوم على الظهر، ويكون على الجنب فقط وعلـــى جهـــة واحـــدة، وكأننا سمك في علبة السردين، ولا حول ولا قوة إلا بالله..

ولما كان عرض القاعة لا يزيد على ثلاثـــة أمتـــار فـــإن التـــداخل بالأرجل حالة متوقعة ومعتادة، فالأرجل المتقابلة قـــد تصـــل إلـــى

إضاءة؟ فقال: نعم.. كان هناك قنديل يبعد عن مكان العبور أقل من مائة ذراع. فقال له: إنك لا تستحق المكافأة! لأن ذلك القنديل كان يعطيك الدفء والحرارة!!.

الحوض وأحياناً إلى الكتف، حسب طول قامة المتقابلين عند النوم. ومن الطبيعي أن ينتج عن هذا الوضع نوم متقطع، لا يخلـو غالبـاً من شجار وعراك لأتفه الأسباب، بين بعض السجناء، مما يضطرنا إلى التدخل لتهدئة الموقف، أو قد يتدخل المراقب أو الحرس لحـل النزاعات.. وفي حالة زيادة العدد وأتباع أسلوب الواجبات، تقسـم الغرفة إلى حظائر ومجاميع، فكل خمسة أو ستة تمثـل مجموعـة، يكون أحد أفرادها واقفاً بالتناوب. ولعـدم تـوفر سـاعة لتنظـيم الخفارات يتم اعتماد العد، كأسلوب عملي لتحديـد الوقـت، وهـذا الأسلوب أيضاً يكون سبباً في بعض المشاكل والاختلافات، لاسـيما مع البعض الذين لم يتعظوا من هذه المحنة، وتكون رغبـة النـوم عندهم أهم من مصلحة الآخرين، فترى شخصاً يعد سريعاً، وآخر لا يعد ويقدّر الوقت تقديراً، وآخر يكلّف آخر بالعد وهكذا. وكان الخفر الأول يعد إلى ١٠٠٠ أو أكثر حسب عدد مجموعة الخفارة، ثم يليه الثاني وهكذا[٩].

أما الماء فلم يكن في الغالب متوافراً أثناء النهار، وجزءً من الليـل سواء في أيام الشتاء الباردة أو الصيف الملتهب، لكنه في الصـيف أكثر شحة، حيث يتوفر ما بين الساعة الثانية ليلاً والتاسعة صباحاً، وبشكل متقطع. أما في الشتاء فيتوفر من الساعة (٩) التاسعة لـيلاً

[٩] كان قِصَر قامتي مقارنة مع الآخرين، كثيراً ما يجعلني في مقابل أشخاص طوال القامة، وكانت أقدامهم تصل إلى كتفي ولا تصل قدماي إلى بطنهم.

إلى الساعة التاسعة صباحاً وبشكل متقطع أيضاً. ان لقلة الماء أثر واضح على النظافة والغسل وقضاء الحاجة وغسل الملابس والوضوء والمحافظة على الوضع الصحي، فتنعكس تلك الحياة سلباً على الصحة بشكل عام. إن ترتيب عملية قضاء الحاجة والوضوء (أو الحمام الصباحي والمسائي كما يسمى في المنزل) ليس بالأمر الهين بسبب شحة الماء، فلكل سجين تسلسله ورقمه في كل دورة، سواء في صلاة الفجر أو الضحى بعد الاستيقاظ من النوم، أو المغرب، أو في الليل قبل النوم، حيث تمنع الحركة والتنقل بعد فترة النوم، أي بعد الساعة (١٢) ليلاً، كما أن لكل موقوف حصة محددة من الماء لعدم توفر حاويات كبيرة لخزنه أثناء النهار بعد انقطاعه.

أما بالنسبة للوضع الصحي للسجناء، فإنه يختلف في الصيف عنه في الشتاء، فالأمراض في الشتاء، أكثر تنوعاً وخطراً، بسبب الجوع الشديد والوسخ والرطوبة، والهواء الفاسد الناتج عن الكثرة وعدم التعرض للشمس، مما يؤدي إلى انتشار الأمراض الجلدية والجرب، وأمراض اللثة والضعف العام والبواسير، لقلة الحركة داخل الزنزانة، وكذا الحساسية والمضاعفات الأخرى كالالتهابات البكتيرية التي تظهر على الجلد على شكل دمامل (حبوب) تنزف قيحاً ودماً. كما كان للجوع الشديد أثر في إضعاف مقاومة الجسم للأمراض، حيث أن الطعام يخلو من كثير من المواد الأساسية والفيتامينات

التي يحتاجها الإنسان في حياته اليومية فضلاً عن قلته. لقد كانت وجبة الطعام اليومية الوحيدة لا تعدو أن تكون كوباً من حساء الرز (الشوربة) وكوب من المرق مع صمونتين فقط لا يزيد قياس الواحدة منها على ١٠× ٣سم، أما حصة الرز فكانت كوباً واحداً كل يومين، وأحياناً تقل الحصة عن ذلك، بسبب السرقة والتلاعب من قبل الحرس والمسؤولين عن الطعام، وكذلك المتعهد (المقاول) الذي يعدُّ وينقل الطعام الى المعتقل.

إن هذه الحصة اليومية لا تكفي طفلاً صغيراً لوجبة واحدة فكيف يمكن أن تكفينا طوال اليوم. لقد استمر هذا النظام التجويعي أكثر من خمسة أشهر حتى أُذن لنا بمواجهة أهلينا، فتوفر الطعام بصورة محدودة، بعد أن سبب ذلك الوضع كثيراً من الأمراض والوفيات، وأصبحنا جميعاً نشكو من هزال غير مألوف بحيث أصبح وزن أحدنا نصف وزنه قبل أن يبتلى بتلك المحنة إن لم نقل أكثر من ذلك.

وقد كان تناقص الوزن أمراً رهيباً ومذهلاً لنا جميعاً. كما سجل شتاء هذه المحنة أربع وفيات! بسبب سوء التغذية، وكان كل فرد منا يخشى أن تكون نهايته قريبة بالموت جوعاً، حيث فقد بعضنا (٦٠) ستين كيلو غراماً من وزن جسمه، وفقد بعضهم أقل من ذلك، وقد كان معدل انخفاض الوزن لدى السجناء (٢٠) كيلو غرام شهرياً، أو (٤٠) كيلو غراماً خلال أشهر قليلة.وقد فقدت أنا

شخصياً (٤٠) كيلو غرام خلال شهرين، حيث انخفض وزني من (٩٠) كيلو إلى (٥٠) كيلو في مطلع حزيران، ثم استعاد جسمي جزءً من وزني بعد توفر الطعام والسماح بمواجهة الأهل بمعدل عشر دقائق شهرياً.

أما أمراض الصيف فإنها تختلف وتتغير بتغير الظروف، وتتحسن بتحسنها، وبانتهاء حالة الجوع الشديد التي كانت تسود فترة الشتاء، وكذلك عدم الحاجة إلى الشمس صيفاً، مما يرفع مقاومة الجسم ويجعله في وضع صحي أفضل، تغير حالنا نحو الأفضل، إلا أن المعاناة اليومية التي تلاشت وهدأت من الناحية الصحية، ظهرت بصورة أعمق أثراً من ناحية الظروف الطبيعية والحر المهلك.. كما سادت بيننا بعض الأمراض التقليدية، كأمراض المعدة والتسمم والإسهال والمغص، وغيرها من أمراض الجهاز الهضمي، لاسيما في بداية مرحلة توفر الطعام، حيث لم تكن المعدة مستعدة لاستقبال الطعام الكثير والدسم، كما أن سوء الخزن كان من الأسباب الأساسية للتسمم والإسهال. أما معاناة الحر الشديد فسنرى أنها كانت أشد فتكاً من المرض نفسه.

في الحقيقة أن أمراض الصيف كانت تبدو أسرع حدوثاً، وأكثر إيلاماً من أمراض الجوع والشتاء، ويمكن الاستنتاج من هذه المقارنة البسيطة، أن أمراض الأغنياء أشد إيلاماً من أمراض الفقراء، وتلك حكمة طريفة من حكم السجن ومشاهداته، رغم أن

أمراض الشتاء كانت أكثر رعباً وأشد أثراً، لأنها كانت تهدد المصير والوجود.. والمرض بكل أشكاله وصوره هو جزء من ابتلاء الله سبحانه لنا، حينما يريد الله سبحانه أن يبتلي عباده المؤمنين، بنقص من الأموال والأنفس والثمرات وشيء من الخوف والجوع، وربما هنا الجوع كله، بكل ما فيه من معان ومعاناة. لقد كانت الصدقة في واقع الحال تحل على الكثير منا، فقد كنا بحاجة إلى تمرة أو ربما إلى شق تمرة، وكان البعض يأكل الطعام الفاسد ثم يشرب بعده ماءً مالحاً[١٠]، أو يأكل قشور الفواكه ، وكنا نمنعهم من تلك الممارسات ولكن دون جدوى، وكان ذلك يحدث عندما يتوفر البرتقال أو التمر وهو لا يتوفر إلا خطأً وبمعدل مرة واحدة في الشهر أو الشهرين.

أما الوقت في السجن ومعتقلات الأمن فكان يمثل مشكلة، لأننا في عزلة تامة عما يحيط بنا وعزلة عن عالمنا الذي كنا فيه قبل المحنة، ولأن المصير مجهول، وظروف السجن ليست سهلة، فقد كان الوقت يمر بصعوبة، بعدما يخيّم علينا طوله وثقله في عالمنا الصغير ذي المفردات المحدودة والمعدودة، ويحيط بنا ظلام السجن الكئيب كما يحيط بنا شياطين الزنزانة الذين ليس في قلوبهم رحمة

---

[١٠] وهو الأخ حُسني، وكان قد طال سجنه وجاوز السنة وهو وحيد ليس له أهل يتابعونه أو يرسلون له شيئاً، فكان يضطر إلى تلك التصرفات التي كانت تبدو غريبة، ولكنها حدثت أثناء فترة الجوع الرهيب والأمراض الفتاكة وفي ظل خوفنا من المجهول.

ولا شفقة مما نعاني من أهوال وآلام من الحرس والسجانين. وكان لا بد من وسيلة لقضاء الوقت واستثماره لنستطيع الصمود والتكيف مع تلك الظروف والأحوال بكل ثقلها وقسوتها، فكان الإيمان بـــالله وقدره هو السبيل الوحيد للحصول علـــى المـــدد والعـــون، وكـــان الاستشعار بقرب الله سبحانه ورعايته خير أنـــيس لنـــا فـــي هـــذه المحنة. وكان كتابه العزيز الذي استطعنا الحصول عليه بمشقة، هو الزاد الأساسي في طريق الأشواك والأهوال التي صنعها الظالمون.

لقد كان استثمار الوقت في طريق الإيمان وفـــي ظـــلال كتـــاب الله وهديه ونوره هو الذي يحفظ لنفوسنا توازنها ولقلوبنا طمأنينتهـــا، كما يقول الله تعالى: ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾[١١]، ولقد كان هـــذا الميل إلى ذكر الله وقراءة القرآن وكثرة الصلاة من أروع ما اهتدت إليه نفوسنا وأرواحنا في هذا الظرف العسير. لقد كان وقت الشتاء أكثر بركة من وقت الصيف، حيث كنا نختم القرآن الكريم في أقـــل من أسبوعين بدون عجل أو إسراع بل بطمأنينة وســـكينة وتـــدبر، وكأننا نشرب الماء الزلال البارد على عطش الحر القائض، وكانـــت أرواحنا تطرب وتأنس بهذا الزاد والنور البهي. وقد كان لـــه طعـــم وطمأنينة وأسرار روحية، لا تشبه تلك التي كنا نحس بها ونحن في

---

[١١] سورة الرعد/ ٢٨.

ظل الحرية والأمان، فسبحان الله مقلب القلـــوب وهـــادي النفـــوس ومغير الأحوال..

وقد استمر هذا الحال أشهراً وكان قريناً لحالة الجوع، حتى جاء حر الصيف وسمومه، فتبدل الحال وتعثرت النفوس قليلاً بســـبب قلـــة القراءة، لكن الصلة بالله والرجاء منه لم تنقطع، بل كنـــا نستشـــعر ذلك الظرف الصعب وبصلة الله العميقة وقربه منا سبحانه، رغم أثر الحرِّ السلبي علينا. وذلك هو شأن الصيف وأثره على الروح سواء داخل السجن أو خارجه.

بعد مضي أكثر من خمسة أشهر سُمح لنا بمواجهة الأهل، فكانـــت أول مواجهة بعد فراق طويل[١٢]. ولقد كان لتلـــك المواجهـــة نكهـــة خاصة وأثر عميق في نفوسنا، مع شـــيء مـــن القلـــق والشـــعور الغريب، فلم نستطع أن نعيش مع الأهل لحظات أول لقاء بعد ذلـــك الفراق الطويل والمفاجئ. ولقد كان ذلك اللقاء الفريد يوحي بأننا كنا كيانين منفصلين عن أهلينا أو كأننا مخلوقين من عالمين مختلفين، هما عالم الحياة الدنيا وعالم البرزخ بعد الموت. لقـــد متنـــا فعـــلاً وانتقلنا الى عالم آخر أكثر من خمسة أشهر وانقطعنا عن الدنيا، ثم رجعنا إليها بإذن من الله سبحانه وتقديره ومشيئته.

---

[١٢] لقد كانت أول مواجهة لي حضر فيها عدد من أهلي منهم: زوجتي ووالدها مع أخي وأختي وبعض الأصدقاء. وكانت بتاريخ ١٩٩٥/٥/٢٠ أي بعد ١٤٥ يوماً من تاريخ الاعتقال، وبعد عيد الأضحى بأسبوع تقريباً.

وهكذا تضطرب الأحاسيس للوهلة الأولى وتسود الوحشة والغربـــة، ثم نستمريء حالتنا الجديدة بعد ذلك، وفي اللقاءات اللاحقة اعتادت نفوسنا على رؤية الأهل والتحدث إليهم، رغم القسوة التي كنا نحس بها وعدم الارتياح من وجود الأعين الغريبة حولنـــا أثنـــاء اللقـــاء المحدود، وأقسى ما فيه قصر وقت المواجهة، الذي كان لا يزيد عن عشرة دقائق. وقد استمرت هذه المواجهات بشكل دوري شـــهرياً. بعدها ساد شعور بنـــوع مـــن الطمأنينـــة، وأحسســـنا بـــأن هـــذه المواجهات، هي البداية لفتح باب الحرية والفرج الـــذي انتظرنـــاه طويلاً، وقد اقتربت ساعته. وقد كان لهذا التفاؤل والاستبشار أثـــره في النفوس، فأضحت الأيام فيها شيء من الفرح والمرح وقضـــاء الوقت، في الأحاديث والأخبار والألعاب والأكل والشـــرب، وإعـــادة تنظيم وضعنا في مكاننا الجديد مع شـــيء مـــن التفـــاؤل والأمـــل بالخروج السريع من هذا المكان الضيق المظلم السحيق في دهـــاليز النظام العديدة.

لقد بدأ الصيف يضغط علينا بشدة في مستهل هذا الشهر وخلال أيام العيد الحالية عيد الأضحى المبارك، حيث بـــدأت فـــي هـــذه الأيـــام بالشروع بالكتابة وتسجيل هذه المذكرات[١٣]. وهذا العيد الذي نعيش

---

[١٣] كان ذلك في شهر مايس حيث يبدأ الصيف ويزداد الحر في العراق. وقد كنت في أثناء كتابة المذكرات داخل الزنزانة سنة ١٩٩٥م ثم نشرها بشكل محدود سنة ٢٠٠٣م، أتحاشى الكلام الصريح عن أجهزة الأمن وممارساتها وعن دوافع الاعتقال الحقيقية، فلم

أيامه الآن وهو عيد الأضحى المبارك، هو ثاني عيد نقضـــيه فـــي المعتقل - بعد عيد الفطر الذي مضى - في هذه الزنزانة التي هـــي أوسع قليلاً من الزنزانة السابقة، والتي قضينا الشتاء فيها، غير أن معاناتنا التي عشناها سابقاً لم تتغير مع تغير المكان، فالعدد الكثيف الذي لا يقل عن (٤٥) خمسة وأربعين شخصـــاً فـــي الغرفـــة فـــي الحالتين، والتي تتراوح مساحتها بين٢٠-٢٥ متراً مربعاً، ومعاناة الحرمان من رؤية الأهل والأحباب، وألم الفراق نفسه. وكذلك كانت معاناة المصير المجهول مستمرة، إضافة إلى مرارة الظلم والغـدر، فالمواطن في البلدان التي حولنا مقدم علـــى غيـــره مـــن العـــرب والأجانب إلا في هذا البلد، فان العكس هـــو الصـــحيح، فنـــرى أن التوجه القومي الظاهري للنظام، يجعل من اللافتات الرسمية تـــدافع عن الوافدين، مع اهمال متعمد للمواطن وحقوقه الأساسية.

لقد احتسبنا ذلك الظلم والجور والضرر الذي عانينا منه لله تعـــالى، وصبرنا على البلاء خلال تلك الفترة الأولى المظلمة، وكان يظلنا في برزخنا نور القرآن وهديهُ واحساسنا بأن الله معنا، فقد كان لنا في القرآن الكريم خير سندٍ وزاد للصبر والمطاولة، وتحمّـــل الصـــعاب

أذكر الحقيقة كلها خشية أن تقع بيد أجهزة النظام، وخشية التعرض للمساءلة أو العودة للسجن ثانية. وربما كان لاندلاع الحرب الأمريكية على العراق في ٢٠٠٣م سبب اضافي، لتأخير نشر الكتاب، والتي جرت أحداثها في عهد صدام، لكي لا تفسر لصالح المحتل، لأني رغم سجني ظلماً لم أكن أتمنى أن أصطف مع المحتل ومن يؤيده.

التي عشناها في ضيق تلك المعتقلات. لقد كنا نقرأ قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة، إن الله مع الصابرين﴾[14]، ونستشعر تلك المعاني القرآنية وكانت حقاً هي الزاد لنا، فحينما يشعر السجين أن الصبر والمصابرة هي الطريق الأوحد للعبور إلى الشاطئ الثاني، لمواجهة ظلم الطغاة يشعره ذلك بالراحة والطمأنينة، ولكي يتحدى الظلم والقهر، وينجح في هذا الاختبار، ويرجع إلى عالمه الواسع، خارج هذا المكان المظلم. وهكذا كان ذلك الزاد الايماني يعيننا لمواصلة الطريق رغم الظلمة المحيطة بنا لنعاود نشاطنا الاجتماعي، ورسالتنا في الحياة.. فلابد من الصبر مع الصلاة تماماً كما أنه لابد من الزاد لقطع المسيرة، ولابد للراحلة والسيارة من وقود..

ليس من السهولة واليسر تدوين المشاعر والأحاسيس التي نحس بها، وكتابتها على شكل مذكرات أو جمل من داخل المعتقل هنا، ولكن لا بد من المحاولة والكتابة، فكانت هذه المذكرات..

في الحقيقة إن الوضع النفسي في المعتقل يختلف تماماً عما هو خارج السجن حيث الحرية والأمان.. فضلاً عن صعوبة توفير المستلزمات ومتطلبات الكتابة وغيرها.. ولكن عناية الله سبحانه كانت قريبة منا.

---

[14] سورة البقرة/ ١٥٣.

لقد فتح الله علينا أبواباً من رحمته بعد معاناة طويلة، مما سهل المباشرة بالكتابة، والبدء بهذا المشروع الخطير داخل المعتقل، رغم صعوبته وعدم السماح به ضمن لوائح وتعليمات المعتقلات السرية في بلدان الشرق، ليس في بلدنا هذا وحده، بل في باقي البلدان أيضاً. فهو مرض شرقي استبدادي قديم، منذ أن حكم الشرق من قبل المستعمر، وبأصابع دكتاتورية عميلة، تنفذ رغبة الأسياد من أجل البقاء على كراسي الحكم..

ولقد كنا نفكر في موضوع توثيق معاناة السجناء مع بعض الثقاة من رفاق المعتقل، للموازنة بين الفوائد والمخاطر من جراء تسجيل هذه المذكرات. ولقد قررنا وآثرنا الكتابة، رغم معارضة البعض، ممن أرهبهم الظرف والمكان، فنسوا حظاً مما ذكروا به.. فصليت ركعتين استخارة وتوكلت على الحي الذي لا يموت، وشرعت بالتدوين، يساعدني أحد أصحابي المقربين[١٥]..

---

[١٥] رغم ان هذا الاعتقال هو الثاني خلال تلك السنة، الا أن تلك المذكرات قد غطّت أحداث هذه المرحلة بشكل أساسي، مع الاشارة العابرة الى بعض الأحداث والذكريات التي تم استحضارها من المرحلة الأولى، نظراً لقصر مدة الاعتقال الأول وتواضع أحداثه مقارنة مع الأحداث الحالية، كالخوف والجوع والمرض وصور العذاب المتنوعة التي عشناها في المعتقل ولأشهر طويلة.

الجوع والمرض في ظلمات المعتقل:

لم تكن الأسابيع الأولى من الاعتقال ذات بـــال، ولـــم نكـــن نشـــعر بالجوع رغم شحة الطعام، لأن الشعور بالخطر والمصير المجهـــول كان هو المسيطر على تفكيرنا، حيث كانت الشائعات تتردد والأخبار تنتشر بيننا حول أحكام طويلة أو نسيان متعمد مفتوح دون محاكمة أو غير ذلك من التكهنات، ثم استقرت الأخبار على حكم بين ثـــلاث سنوات إلى خمسة عشر سنة، وكانت هذه التوقعات أدناها وأحلاها مر. وقد كان للقوة الذاتية لأجسامنا فضل فـــي تـــأخر الإحســـاس بالجوع الرهيب، ولكن مع بداية الشهر الثاني[١٦] بدأنا نشـــعر بمـــن حولنا من البشر، وبالجوع الذي يعتصر أمعاءهم ويعصف بأجسادهم الهزيلة.

وحين جئنا إلى المعتقل (الزنزانة) بعد أن مكثنا أسبوعاً واحداً فـــي المركز الأمني الرئيسي، وانتهت إجـــراءات التحقيـــق، كـــان عـــدد السجناء في المعتقل أربعين شخصاً في قاعة مظلمة مساحتها ٤ × ٣ متر (١٢ متر مربع) إضافة إلـــى مقدمـــة القاعـــة (المحجـــر) ومساحته ٦ أمتار (٣ × ٢ متر).

لقد كان دخولنا إلى هذه الغرفة الخانقة صدمة نفسية كبيرة لنا، بعد أن تم القاؤنا في هذا الدهليز، وهو بهذه الكثافة البشرية التـــي لـــم

---

[١٦] أي في شهر شباط لعام ١٩٩٥.

نسمع بها إلا في قصص الخيال. ولقد كنا نعجب من طلبات البعض، تعبيراً عن حالة الجوع الشديد والعوز الذي يعـــانون منـــه، حـــين يطلبون منا بضع تمرات أو حتى لب الصمون وبقاياه أو شيء من الحساء أو المرق، حيث كانت حصتنا تزيد عن حاجتنا رغم قلتهـــا من هول الصدمة في أيام الزنزانة الأولى. وكانت معي حينئذٍ كميـــة من التمر وصلتني من البيت عن طريق صديق في الدائرة الأمنيـــة، فتهافت البعض عليّ، الأمر الذي لم أفهمه إلا بعد شهر أو أكثر حين بدأ الجوع يعتصرني، فعلمت حينها أن الجوع الذي كانوا فيـــه هـــو جوع لا يرحم، وله سلطان يحكم سلوك الكثير ممن حولنا!!.

وكانت هذه أول صورة من صور هذا المكان السحيق، حيـــث كـــان المكان يبدو غريباً جداً بكل تفاصيله ووقائعه، بحيث كان كل فرد منا يسأل نفسه: هل يستطيع أن يعيش هنا يوماً واحـــداً أو يـــومين؟.. كيف يمكن أن يأكل وكيف ينام وكيف سيقضـــي الوقـــت؟.. كيـــف سيتعامل مع هذا الحشد الكبير من المظلومين الجياع، على اختلاف مشاربهم وأعمارهم وثقافاتهم، المتواجدين علـــى تلـــك المســـاحة الصغيرة والظروف الصعبة المحيطة بهم؟.

أسئلة كثيرة كانت تضغط على عقولنا.. لكن رحمة الله كانت قريبـــة منا، وكان التكيف مع الظروف الصعبة جزءً من خصائص الإنســـان وقدراته الخفية التي تظهر وقت الشدة، والتي أودعها الله فيه حين استخلفه في هذه الأرض، ولكن قسوة الأرض والطبيعة كانت تبـــدو

أخف وطئً من قسوة الإنسان على أخيه الإنسان. وكان هذا السجن الفريد – ونحن على يقين أن هناك سجوناً ودهاليز أكثر ثقلاً وعذاباً منه – يعج بصور المخالفات وأساليب التعذيب النفسية والجسدية، مما يخالف أبسط قواعد حقوق الإنسان التي حددتها الدول والمنظمات التي تدافع عن الإنسان وكرامته، ولكن عملية خرقها وعدم تطبيقها أصبحت أمراً شائعاً في معظم بلاد الشرق المقهور ونظمه الجائرة.

كنا نشعر في البداية أن دخولنا في هذا البئر المظلم بدون إنذار مسبق، هو قدر مفاجئ كالموت أو أي حادث مروّع سريع فاجأنا دون أن نستوعبه أو نستوعب ظرفه وأبعاده، حيث أخرجنا فجأةً من عالمنا الجميل المضيء إلى هذا البرزخ المظلم الذي لم يكن في تصورنا –الذي بنته الأحداث المتسارعة داخل المعتقل– أن الخروج منه سهل مثل دخوله.

التعامل مع شحة الطعام ورداءته وسرقته:

يمكن أن نعيش مع بعض الصور والأحداث التي كانت تمر بنا خلال تلك الفترة المظلمة، لكي نتصور حالة الجوع التي سادت عالمنا لمدة خمسة أشهر أو أكثر، فقد كانت تمر الأسابيع والأشهر ولم يدخل عالمنا غير طعام التموين المتواضع جداً، وحتى هذا الطعام البسيط كان يسرق بعضه من قبل متعهد الطعام والسجانين والحرس، الذين كان معظمهم أشبه بحيوانات نهمة ليس لها شعور أو إحساس كبقية البشر. وقد كانوا مدربين على أعمالهم اليومية مثل كلاب الحراسة الشرسة، لا تفهم لغة البشر في معظم الأحيان. أما أنواع الطعام التي تحافظ على الصحة وتديمها، فإننا لم نكن نسمع بها إلا نادراً، كالفاكهة أو البيض أو اللحم، ولا غيرها من أساسيات الغذاء الضروري للمحافظة على الصحة والحيوية، ولم يحدث أن وصلت المعتقل الا مرة أو مرتين عن طريق تبرع بعض السجناء الأغنياء، وبعد أن يتم استحصال موافقات عديدة ومعقدة، وهي لم تحدث خلال أشهر الاعتقال الطويلة إلا مرة أو مرتين، فيما عدا اللحم الذي لم نسمع عنه إلا بعد السماح بالمواجهة مع الأهل. وحين دخلت – خطأً – في يوم ما حصة من ذلك الطعام (بيضة وصمونة مع برتقالة) تبرع بها أحد الموقوفين، بعد الافراج عنه وخروجه من المعتقل، ممن كانت لهم العلاقات المؤثرة على أصحاب

القرار ولهم القدرة على إدخال الطعام إلى المعتقل، لم نكن نصـــدق أعيننا أن نرى البرتقال والبيض ثانية!. وبعد هذا الحـــادث المهـــم استمر وصول كمية بسيطة من التمر (من النوع الرديء) بفضل من الله ومنة، فكنا نشعر بتلك النعم التي لـــم نكـــن نستشـــعر فائـــدتها وقيمتها إلا في هذه الأيام العجاف. لقد كان البرتقـــال حـــين يـــدخل عالمنا - ولو خطأً - يؤكل مع قشوره بل مع بذوره المرّة من شدة الجوع، وكانت السُفرة بعد الأكل في الغالب تبقى نظيفة مـــن بقايـــا الأكل سواء من حبات الرز أو فتات الصمون أو غير ذلك. والسُفرة هي عبارة عن قطعة من النايلون بمساحة ٥٠ × ٤٠ ســـم تقريبـــاً يجتمع عليها خمسة أشـــخاص عـــادة، ممـــن يمثـــل الحظيـــرة أو المجموعة الواحدة.

وفي تلك الأيام وفي ذلك الجو من الجوع والحصار المضروب علينا في المعتقل، تذكرت في نفسي العهد المكي مـــن الســـيرة النبويـــة الشريفة، والحديث الشريف عن حصار المشركين للمســـلمين فـــي شعاب مكة، حين قال أحد الصحابة وهو يعاني مـــع أخوتـــه شـــدة حصار المشركين لهم: لقد كنا نبعرر!. فلقد كنا نحن أيضاً نبعرر، بل كان بعضنا يبقى أكثر من عشرين يوماً دون أن يســـتطيع التغـــوط، وقد سببت هذه الحالة وفاة أحد المعتقلين. أما أنا فقد كنت أســـتطيع التخلص من الفضلات مرة أو مرتين أسبوعياً ولم أواجـــه مشـــكلة هضمية غير مشكلة الصلابة أو البعر. وهنـــا نســـتطيع أن نفهـــم

الحكمة من ذكر الدعاء المأثور عند الخروج من الخلاء وهو قولنا: الحمد لله الذي أذهب عني الأذى وعافاني .. فكم هو الإنسان ضعيف وفقير وحقير لولا نعمة الله ورحمته، ونفهم احاطة الاسلام لحياة الانسان وحاجاته حتى في أصغر التفاصيل، ليستشعر نعم الله وآلائه التي لا تعد ولا تحصى، الا بحمده وشكره على تلك النعم الظاهرة والخفية.

ومع تلك الصور المأساوية والحزينة التي عشنا ظلها الثقيل في المعتقل، لم يخل هذا الابتلاء من الفوائد والمنن، بل إن المنن الكثيرة قد تكمن في المحن القاسية، فصلتنا بالله سبحانه كانت أقوى وأعمق ونحن في المعتقل، والعلاقة الأسرية والأخوية كانت تعيننا وتزيدنا صبراً وإصراراً على تحدي الظلم. وان الأمل بالخروج من هذه المحنة بدون مرض أو عاهة أو ضرر دائم، كان يلهمنا الصبر والزاد للمواصلة، فهو صراع بيننا وبين من ظلمنا، وقد كان الله معنا، ولم يتركنا إلى أنفسنا وقدراتنا الذاتية طرفة عين.

لقد أصبح الجوع حالة معتادة بيننا قبل حلول شهر رمضان المبارك بأسابيع، وأصبح جزءً من حياتنا اليومية في السجن وكنا قد رتبنا حياتنا معه، وكنا نكتفي بذلك الرزق اليومي القليل. وقد كانت الحصة اليومية في البداية صمونتين من النوع الأسمر الصغير الحجم، ثم سرعان ما أصبحت صمونة واحدة يومياً، ثم عادت

الحصة مع بداية شهر رمضان صمونتين لتستقر على هذا للأشـــهر التي تلت.

لقد كانت هيبة شهر رمضان تجعلنا نستمرئ الجوع، ولا نفكر بشدة وطأته. لقد كان هذا الشهر الكريم موسم عبادة متميّز[١٧]، فاق أشهر رمضان السابقة روحانيةً وسـكينة وتقربـاً إلـى الله، بالصـلوات المنتظمة جماعة في الأوقات الخمسة.. وفي صلاة التراويح، وقيام الليل (التهجد)، وصلاة الضحى. وقد شاعت بيننا في أيـام المحنـة سنّة المحافظة على الأذكار في الصباح والمساء، وقـراءة القـرآن بمعدل ١٠ – ١٢ ساعة يومياً وبإقبال وتدبّر، حتى تيسر لنا خـتم القرآن خلال هذا الشهر الكريم ثلاث مرات، إضافة إلى حفظ بضـع أجزاء من القرآن الكريم، وفق أسلوب تكرار قـراءة السـور ثـم حفظها. وكان التنافس واضحاً بيننا في هذا المجـال، لاسـيما فـي حظيرتنا. ومن الطريف أن أذكر أننا أول من أدخل المصاحف وكتب التفسير وقصص الأنبياء إلى المعتقل عن طريق (البريـد السـري) بمساعدة الحرس مقابل مبالغ معينة كنا ندفعها لهم. وانتشرت بعـد ذلك المصاحف الصغيرة (والمجزأة منها) فـي المعتقـل، وارتفـع عددها إلى خمسة مصاحف في القاعة بعد شـهر، حتـى أصـبحت القاعة تضج بأصوات القارئين، وكانت أجزاء القرآن تتنقـل بـين

---

[١٧] بدء شهر رمضان في المعتقل، يوم الأربعاء مطلع شباط ١٩٩٥/٢/١م. وقد حلّ عيد الفطر وشهر شوال في شهر آذار ١٩٩٥/٣/٣م.

السجناء حسب الطلب، وكأنهم نسوا السجن وألمه والجوع وثقلـــه، والمرض وأذاه...

ومع انتشار بشائر أمل الفرج والخروج من عالم البـــرزخ المظلـــم، كما كنا نسمعه من مسؤولي السجن ليلة عيد الفطر[١٨].. كان الجميع مستبشرين.. غير أن هذا الأمل قد خاب حينما أجل موعد الإفـــراج، وقد شاء الله لنا أن نبقى في السجن طيلة الأشهر اللاحقة. مما أثار شعوراً بخيبة الأمل لدى البعض، واليأس والاحبـــاط لـــدى الـــبعض الآخر، حتى وصل الأمر الى رفض أحد السجناء أن يحتفـــل بالعيـــد من شدة الصدمة، فساد اليأس والقنوط والجزع بعد ذلـــك النشـــاط والتفاؤل والتهيؤ للفرج والخروج من المعتقل، حيث العالم الواســـع والأهل والأحبة. ولكن تيقن لنا أن كل شيء بقدر ولكل أجل كتـــاب. لقد كنا نحاول اقناع اليائسين بتلك المفاهيم التي تحث على الصـــبر والمصابرة والرضا بقدر الله وحكمه. ونحاول أن نرجعهم إلى أصل الإيمان بالله وقدره، واستطعنا أن نقنع معظم المعتقلين المتشـــائمين من أصحاب اليأس والقنوط هؤلاء ونشد العزائم، وأن نؤدي صـــلاة العيد ونقرأ القرآن ونكبر من وقت صلاة الفجر حتى موعد صـــلاة العيد صباحاً.. وقد تعانق الجميع وتبادلوا التهنئـــة إلا واحـــداً مـــن رفاقنا المعتقلين، الذي أبى أن يستقبل أحداً، بل لقـــد هـــددنا بأنـــه

---

[١٨] كانت تلك الليلة المباركة قد وافقت يوم الجمعة ١٩٩٥/٣/٢م، حيث كانت أيام عيد الفطر في الفترة من ٣ – ٥ / ٣ / ١٩٩٥ م.

سيهين من يهنئه، وكان يتمتم مع نفسه بحسرة بيت شعر شهير للمتنبي وهو يقول:

عيدٌ بأي حالٍ عدت يا عيدُ   بما مضى أم لأمرٍ فيك تجديدُ

لقد كان هذا الرجل وهو الأخ صلاح، طيباً حازماً عاش قبل هذه المحنة أسيراً في حرب إيران لسنين عديدة، فكان يود لو أن هذا البلاء يرفع عنه بأسرع ما يمكن، لكي يعود الى أهله، فقد جزع حياة الأسر والسجن. ولكنه سرعان ما عاد إلى الصف، ومارس دوره الفاعل بين السجناء وأصبح مراقباً علينا في الأشهر الأخيرة وتحمل كثيراً من الصعاب في سبيل تنظيم حياتنا البائسة في ذلك السجن الضيق الصغير. وبعد مدة ذكرته بموقفه المتألم بسبب الاحباط الذي أصابنا من عدم صدور العفو المرتقب ليلة العيد، مما جعله متوتراً ويرفض الاحتفاء بشعائر العيد وتهنئة رفاقه، فقال لي: كنت أأمل أن نلحق بركب الحياة ونعيّد مع الأهل والأولاد ولكن هيهات. فقلت في نفسي كأنه يذكرني بالطغرائي وهو ينشد بألم واحباط:

ما كنت أؤثر أن يمتد بي زمني   حتى أرى دولة الأوغاد والسفلِ
تقدمتني أناسٌ كان شوطهمُ   وراء خطويَ إذ أمشي على مهلي

بعد انتهاء شهر رمضان وخلال شهر آذار ومع إشراقة فصل الربيع الجميل، بدأت رحلة الجوع الحقيقية! يواكبها مرض الجرب الوبائي

المريع. لقد كان ذلك الربيع الذي شهدناه في الغرفة المظلمة في واقع الحال، ربيعاً مريراً لم نرَ ولم نسمع بمثله من قبل، فقد كنا في ما مضى من الزمن نعتمد على قوانا الذاتية ولم نكن نخشَ شيئاً، وكنا نعيش في ظلال كتاب الله العزيز.. ولكن حينما هزل الجسم ونفد ما فيه من قوت وهيمن الجوع والمرض علينا وبدأ ينخر في أجسادنا بشكل مؤثر، تغيّر الأمر وبدأت الرايات البيض تلوح في الأفق، وأصبحت الوجوه تتكلم في صمت وتشكوا إلى الله ظلم الإنسان وقهره، والله تعالى ينظر إلينا ويسمع دعاءنا واستغاثتنا، فأكرمنا بالصبر والرؤى الصادقة، ثم بشيءٍ من كرمه، ثم بالفرج القريب. ولقد كان لموت أحد الموقوفين في غرفتنا، أثرٌ كبير على نفوسنا، وأضحت حالة من الرعب والخوف تدب بيننا[19]، ونحن في فزع وخوف شديد، يزيد من ثقله الجوع والمرض والمصير المجهول.

صعوبة حصول المعتقل على الدواء في وقته:

---

[19] لقد كان رحمه الله شاباً رياضياً ضخماً ونشيطاً، وكان صاحب دعابة وبشاشة، إلا أنه في آخر أيامه أمتنع عن الأكل، بسبب علة في أمعائه أدت إلى وفاته، إذ وجدناه ميتاً في فراشه في صباح أحد أيام شهر نيسان، قبل أن نتمكن من إقناع المسؤلين لنقله إلى المستشفى.

أما العلاج فقد كان وصول الدواء في وقته المناسب أمراً متعــذراً، وإذا أراد أحدنا مراجعة الطبيب، فعليه أولاً تسجيل عيادة طبية مــن ادارة السجن،ومع ذلك فان الطبيب لا يأتي إلا بعد أسبوع أو أكثــر من وقت تسجيل العيادة!.. وكان الطبيــب عــادةً لا يكتــب دواء ذا قيمة، لعدم توفر الأدوية الفعالة في المعتقل. وأما استلام الدواء فلا يحصل عادةً إلا بعد فترة لا تقل عن عشرة أيام، ولا يسلم لنا كاملاً بل مجزأً على شكل دفعات، كل يوم جزء منه، وغالبــاً مــا ينســى الحرس تسليم الحصة اليومية، وتصعب مطالبته بهــا إلا إذا كــان مزاجهم يسمح بذلك!.. وهكذا يكون الدواء غيرَ مجدي، بعد فــوات الأوان على تناوله. فيستفحل المرض وينتشــر الوبــاء، ويصــبح الشفاء صعباً، إلا إذا أخذ المرض دورته ونال من أجسادنا ما شــاء الله له أن ينال منها.

وقد كنا في مواجهة الأمراض نركزّ على النظافة والتعقيم بالصابون وغيره مما يتيسر، وإتباع التعليمات والتوجيهات التي تعلمناها مــن بعض أصدقائنا الأطباء فيما سبق، حول استعمال الدواء والمضادات الحيوية والمراهم، وكذلك الاعتماد على المناعة الذاتية وعلــى دور الطعام- على قلته - والاهتمام بأجسامنا، وعدم استعمال الأدوية إلا عند الضرورة، حيث كانت تلك الأمور ذات فوائــد محسوســة فــي مواجهة المرض. وقد كان للتمر - الذي كل يصل إلينا بصــعوبة - أثر ودور في تخطي تلك المرحلة بسلام، إذ أنــه لا يخفــى علــى

الجميع ما للتمر من فوائد غذائية وصحية جمة.. مما جعلنا نـــدرك الحكمة النبوية في الحث على تناول التمر والاهتمام بالنخيل، ورسخ في أذهاننا جملة مفاهيم إسلامية كنا نمر عليها مروراً دون أن نعي معانيها، وكيف أن النبي ﷺ كان يحث على إكـــرام شـــجرة النخيـــل بقوله: (أكرموا عمتكم النخلة)، وكان يحث على التصدق ولو بشـــق تمرة فتكون منجاةً لنا من نار جهنم! بقوله: (اتقوا النار ولو بشـــق تمرة)، ومن هديه ﷺ: (لا يجوع أهل بيت عندهم التمـــر)، وكـــذلك الحديث الذي روته احدى زوجاته ﷺ: كان يمضي الشهر والشهران ولا يوقد في بيت رسول الله ﷺ نار، وكان لا يأكـــل إلا الأســـودين: الماء والتمر. وذلك يعني أن التمرة بل شـــق التمـــرة فـــي بعـــض الأحيان تعني الشيء الكثير، وهذا ما تبين لنا بشـــكل جلـــي داخـــل السجن، فضلاً عن أن التمر عموماً هو مادة غذائية مهمة في حياة الناس، لاسيما في العراق والخليج. ولكن الإنسان لا يشـــعر بقيمـــة النعم إلا بعد فقدانها.

ومن الأمراض الأخرى التي انتشرت بيننـــا بعـــد مـــرض الجـــرب الوبائي، التهاب اللثة وفقر الدم والبواسير والنـــــزف مـــن الـــدبر بسبب ما يسمى بالفطر، بسبب الإمساك وقلة الحركة وقلة الطعـــام، وكان فقر الدم من أسباب وفاة أثنين من السجناء قبل أشهر قليلة.

لقد كانت تحدث بعض السرقات في الصمون والتمر وبقية مفـــردات الأكل المحدود في عالمنا الضيق، بضغط من الجوع والفقـــر علـــى

بعض النفوس الضعيفة، وكانت هذه السرقات تسبب بعض المشاجرات والعراك، وكان هؤلاء الأشخاص ذوو النفوس الضعيفة معروفون، وربما أحياناً معذورون لطول مدة مكثهم في المعتقل، التي قد تزيد على سنة بدون أن يعرضوا على المحكمة، فأحياناً يكون بعض السجناء متروكين ومنسيين دون تحقيق مكتمل أو محاكمة لمدة غير قصيرة أو حتى غير محدودة أحياناً.

مرحلة الانفراج النسبي والسماح بمواجهة الأهل:

لقد تغير حالنا خلال مرحلة الانفراج النسبي والسماح بمواجهة الأهل، وتحول الجوع المزمن الى جوع متقطع، تفصله فترات من التخمة حين يصل الطعام، في الفترة التي تلت المواجهات والزيارات من قبل الأهل والأصحاب، بعد أشهر عديدة من الجوع المتواصل. لقد كنا نكتفي من الطعام ونتخم أحياناً، ثم يتناقص الأكل تدريجياً خلال أيام معدودة، ثم نجوع ثانيةً بعد أسبوع من المواجهة. وقد بدأت هذه المرحلة في شهر مايس ولا تزال مستمرة ونأمل أن يتبعها الخروج من هذه الظلمة. لقد كان وقت المواجهة قصيراً ولا يعدو أن يكون أحد وسائل التعذيب النفسي للمعتقلين ولعوائلهم، الذين كانوا ينتظرون ساعاتٍ طوال لاستكمال الإجراءات الأمنية والتفتيش الدقيق لكي يحظوا برؤية أبنائهم لفترة قصيرة، ولكنها كانت في الوقت نفسه منّةً من الله تعالى أن نرى الأهل والأحبة

ونحصل على الطعام اللازم. لقد سببت وفرة الطعام وكثرته في بداية الأمر، مع حالة توقف الجهاز الهضمي لأشهر طويلة، وضعاً صحياً خطيراً داخل الزنزانة، حيث التخمة والتسمم والإسهال والمغص المعوي الشديد، ولم يسلم أحدٌ من السجناء من أحد هذه الأعراض والأمراض، وكان تخمر الأكل وعدم هضمه داخل المعدة ثم يتبعه الإسهال الشديد، هو من أكثر ما عانينا منه خلال مرحلة الانفراج وتوفر الطعام، ولكن بعد فترة وبعد توفر الأدوية وتعود المعدة على الوضع الجديد، تجاوزنا هذه الأزمة، التي كانت خطيرة بشكل جاد. لقد قلّت حالات الإسهال والمغص والتخمة بعد ذلك، ولكن حالات التسمم بقيت ذات أثر وخطر على المعتقلين، بسبب عدم توفر وسائل خزن الأطعمة وحفظها لفترة كافية. ومع مرور الوقت تمت السيطرة على الموقف الصحي بشكل عام. إن صعوبة السيطرة على الموقف تكمن في كوننا عشنا دهراً من الزمن في حالة يرثى لها من الجوع والحرمان، تجعلنا لا نستطيع مقاومة أغراء تنوع الأطعمة ودسامتها، فكان عدم التوازن والإفراط هو الغالب بيننا ثم كانت النتيجة التخمة وأمراضها. وقد ساعدت موجة الحر وارتفاع درجة الحرارة مع بداية شهر حزيران على كثرة الأمراض أيضاً، فضلاً عن كون المعتقل يقع في الطابق الثاني ويخلو من أبسط أنواع التكييف والتهوية الصحية، وقد جعلنا هذا الوضع في حالة خوف وحذر شديد من تناول الطعام بحرية، نظراً لقسوة الإسهال

والتسمم وصعوبة تلافيه[٢٠]. ولقد أصبت أنا شخصياً بالإسهال الشديد بسبب توقف نشاط المعدة وتخمر الأكل داخلها مرتين خلال أسبوع واحد، حيث فقدت سوائل كثيرة وكنت طول الليل أستفرغ ما في المعدة والأمعاء، وكنت أفقد الوعي مرات عديدة، وكانت هذه المحنة شديدة علي بعد أن تخلصت من آثار الجرب وأمراض الجوع قبل فترة وجيزة. وبعد أن استقرت معدتي وأمعائي وتحسنت حالتي، أخذت عهداً على نفسي ألا أذوق طعاماً بائتاً ولا آكل الأكل المتنوع، بل أكتفي بالأكل الجاف والمعجنات والتمور. وكانت تلك الخطة ناجحة فعلاً، فلم تتكرر معي هذه الحالات في الأشهر اللاحقة.

---

٢٠ ومن أرشيف الحرب العالمية الثانية، يُذكر أن مجموعة من الأسرى اليابانيين، من الذين أسرهم الأمريكان في الحرب، وكان عددهم أكثر من ألف أسير، واجهوا موقف مشابه بعد الإفراج عنهم، حيث أدى تناولهم الطعام مباشرة بعد حالة من الجوع المزمن، إلى تسمم ووفاة قسم كبير منهم.

وقفة مع الجرب الوبائي في المعتقل:

لقد كان الجرب أكثر الأمراض انتشاراً وفتكاً بيننا في فصل الشـــتاء تحديداً، إذ إنه أول ما يظهر في منطقة السوأتين ثم ينتشـــر بعـــدها إلى كافة مناطق الجسم عدا منطقة الرأس والوجه، وغالباً ما يظهر في مكان الجرب، وبسبب التلوث الذي تحدثـــه طفيليـــات الجـــرب، أورام متقيحة على شكل دمامل تكبر شيئاً فشيئاً، مصحوبة بحكة في المناطق المصابة من الجلد، ثم يتطور المرض عنـــد عـــدم وجـــود العلاج ويصيب الجلد بالتهاب بكتيري حاد يسبب القيح. وهو مرض معدي سواء بالتماس والملامسة الجسدية، أو عـــن طريـــق قمـــل الملابس والأجسام، الذي ينتشر بين المعتقلين عادة. ويعـــد القمـــل السبب الرئيسي في انتشار المرض والانتقال بالعدوى داخل السجون والمعتقلات.

لقد كان هذا المرض ملازماً لنا وبشكل دوري، حتى أنه لـــم يتـــرك مجموعة منا أو يخفف هجومه الوبائي، إلا ويبـــدأ مـــع مجموعـــة أخرى في قاعتنـــا، وهـــي القاعـــة المظلمـــة الصـــغيرة المكتظـــة بالسجناء.. فقد كانت نسبة المصابين بهذا المـــــرض خـــلال آذار ونيسان (١٠٠%) تقريبـــاً، (٢٥%) من السجناء كانوا يعانون من مراحله المتطورة، إذ أن المصاب يظهر عليه آثار نزف وقيح مـــن الدمامل التي تظهر كأثر جانبي للجرب، والتي تتركز بشكل مكثـــف

حول القبل والدبر والساقين والبطن.. هذا إضافة إلى القمل الذي كان يرتع في جو من الوساخة والرطوبة والعفونة التي كانت تزكم الأنوف. مما زاد الأمر تعاسةً وسوءً، وفي ظل الجوع المزمن والأمراض الوبائية وأمراض الجلد والجهاز الهضمي ووفاة عدد من السجناء، شعور الكثير منا بقرب النهاية والموت الوشيك بسبب احاطة عالمنا السفلي بتلك الأمراض الوبائية المعدية، التي كنا نعدها خطيره ومحبطة للآمال، حتى سيطرت تلك الفكرة على ذهن معظم السجناء، لاسيما وإن الحصول على الدواء كان أمراً مستحيلاً بالسرعة التي نرجوها، فلم يكن من ملجأ نلجأ إليه سوى الله تعالى ليعيننا بالصبر والسلوان. وقد كنا نسأله تعالى أن يفتح لنا باباً من رحمته، إذ كان يبدو لنا أن القصد من هذا العذاب والظلم والجو الملوث الذي لا يصلح حتى للحيوانات، هو قتلنا بشكل بطيء لولا عناية الله ورعايته. ومع ذلك فان عزيمتنا وايماننا وثقتنا بالله الرحيم الرؤف بعباده، كانت تزودنا باليقين في العبور الى شاطيء الخلاص والنجاة. يقول أحد الصالحين في حكمة مأثورة: (أنه حين يعجز الناس تنزل سفينة نوح)، إذ لا ينسى الله أحداً من خلقه، حتى ولو كانت نملة سوداء تمشي على صخرة صماء في ليلة ظلماء، فكيف بعشرات الناس من المعتقلين المظلومين في محنة ومرض وجوع ليس له نظير.

مكافحة القمل والجرب في المعتقل:

الجرب- كما هو معروف - مرض طفيلي سريع العدوى، وهو مرض السجون والمعتقلات والأماكن النتنة، وفي مثل ظروفنا وأسلوب الأكل والنوم والحركة، والكثافة العالية للسجناء يصبح انتشار المرض أمراً حتمياً لا يمكن التخلص منه، إلا بعد الخروج من هذا العالم المظلم النتن. كما إن انتشار قمل الملابس والجسم حالة لا يمكن التخلص منها أيضاً، وهو ينتشر عادةً في الأماكن القذرة والرطبة والمظلمة، وهذه بالضبط مواصفات عالمنا السفلي في المعتقل. ولقد كنا نكافح القمل ونقتل منه العدد الكبير يومياً، وقد يصل الى (٢٠-٣٠) قملة يومياً لكل شخص، وكان تفتيش الملابس وتلك المكافحة اليومية للقمل في القاعة، أمراً إجبارياً على السجناء، إذ يتعرض من لا يقوم به أو يقصّر فيه إلى العقوبة والمحاسبة، وذلك بهدف السيطرة على موقف القمل وتقليل عدده بيننا، وكثيراً ما يقوم السجّان بضرب بعض السجناء وإهانتهم بسبب التقصير في هذا الواجب، وهذه من المحاسن النادرة التي رأيتها في المعتقل!.

وأذكر إني حين أصبت بمرض الجرب انتظرت فترة غير قصيرة للحصول على دواء ولم يحضر الطبيب، لأنه كان يخشى على نفسه من العدوى، وكذلك لا يقترب منا الحراس ولا الضباط للسبب نفسه.

ومن الطريف أن الأخ ضياء حين أطلق سراحه بعد ثلاثة أشهر من الاعتقال، عن طريق أحد معارفه من الضباط الذين تبنـوا قضـيته. وعندما أفرج عنه، أراد أن يشكر الضابط على موقفه، وأراد تقبيله، ولكن الضابط هرب منه مسرعاً، ولم يعطيه المجال لتقبيله، خوفـاً من العدوى، وكنا ننظر اليه مـن سـطح البنايـة، فـي الـدقائق الاسبوعية المخصصة لنا للتعرض للشمس. وهكذا كـان الموقـف معنا من جميع من حولنا من الكادر الاداري والطبي وغيـره. لقـد كتبت عن حالتي إلى الأهل؟، بعد أن يأست من دور الطبيب وتـوفر الدواء في القاعة، ولكن الرسالة لم تصل في وقتها، وانتشر الجرب على ما ذكرت من مناطق جسمي وغيرها كما هو معتاد، وكنـت لا أستطيع الجلوس للقراءة والتحدث مع الآخرين وتحولت الدمامل إلى جرح عميق بسبب النوم المتلاصق، وكان الدم ينـزف منـي كـل صباح، وأصبح في مكان الجرح حفـرةً.. واسـتمر هـذا الوضـع عشرين يوماً تقريباً، كانت قاسية جداً علي، وكان هذا الوضع أشـد ما مرّ بي في المعتقل حتى ظننت أن لا نهاية له، وان هذا الجرح لا يمكن أن يلتئم لطول الفترة وعدم وجود الدواء، مما أنعكس سـلباً على وضعي النفسي، ثم وصلت حداً لا يطاق من المعاناة، وخشيت على نفسي ويقيني برحمة الله تعالى. وفي يوم من أيام المحنة بعـد هذا اليأس وفي صلاة العشاء، دعوت الله دعوة صـادقة ورجوتـه فيها الخلاص من المرض، وكنت أستذكر النبي أيوب (عليه السلام) وأحتقـر

نفسي، وأذكر النبي يوسف عليه السلام ويونس عليه السلام فأزداد إيماناً وثقةً بالله، حيث كان بلاءهم بالسنين وليس بالأشهر كما يجري معنا، ولكنا لسنا أنبياء ولا حتى أولياء بل ضعاف لا نقوى على البلاء الصعب وعلى مرض كهذا وظلم كالذي رأيناه. وقد كانت تلك الليلة ليلة غريبة بكيت فيها وطلبت من ربي أن يلطف بي ويخفف عني، ولم تمض تلك الليلة، وفي الساعة الثانية عشر ليلاً وعلى غير العادة والمألوف، نادى السجّان باسمي وسلمني كيس فيه الدواء والطعام والملابس التي كنت بأمس الحاجة إليها في حينها، فدهشت ودهش أصحابي من ذلك الذي حدث، حيث انه كان من المستحيل أن يصل كل ذلك لي وبهذه السرعة إلا بلطف من الله. وعلمت فيما بعد أن أحد الموقوفين ممن أفرج عنهم قبل شهر وهو الأخ ضياء، ذهب إلى أهلي وأبلغهم وضعنا السيئ، واستطاعوا بعد جهد أن يوصلوا لي ذلك الكيس، واختفى المرض والالتهاب ومعظم آثار الجرب بعد أيام من تلك الليلة المباركة.

فحمدت الله على تلك المنة، ثم توالى وصول الدواء لبقية السجناء، وتمت محاصرة هذا المرض دون أن نتمكن من القضاء عليه نهائياً إلا بعد أشهر، وتحديداً عند دخول فصل الصيف أي بعد خمسة أشهر من الاعتقال. أما صاحبي زيد فلم تظهر عليه آثار الجرب المتطور إلا بعد أن اختفى المرض بيننا تقريبا، أي في شهر مايس بعد انتقالنا إلى قاعة التابوت، وقد كان تغير الجو على زيد

وانحسار وباء الجرب في الصيف عن الآخرين قد أثر على وضعه النفسي، لاسيما بعدما حاول البعض عزل المرضى ومضايقتهم، واستمر وضعه المقلق أكثر من أسبوع، وأصبح كثير النوم يميل إلى الانعزال وعدم المشاركة في النشاط اليومي، وطلبت من مراقب القاعة أن يمنع أولئك الذين يضايقون المرضى، والذين كانوا بالأمس القريب يعانون من نفس المرض، أن يؤذوا المرضى بالكلام الجارح. والطريف أنه مع بداية تحسن الوضع الصحي لزيد وصلت رسالة عبر البريد السري من أحد أصدقائه، وكان لهذه الرسالة تأثير السحر على نفسية زيد وصحته، ولقد كانت رسالة رقيقة جداً تدعونا إلى الصبر والثبات في هذا الابتلاء الذي أكرمنا الله به، وكانت مكتوبة بأسلوب جميل ومؤثر وكأنها من شيخ وليست من شاب في مقتبل العمر، فشعرت كأن الله قد بعثها في الوقت المناسب لكي يستعيد زيد صحته ونشاطه وهكذا كان.

الرؤى والأحلام:

إن موضوع الرؤى والأحلام في عالم البرزخ، هـو فـي الغالـب انعكاس للحالة النفسية والروحية التي يعيشها المعتقل في السجن، وهو تصوير رمزي للجو العام الذي كنا نعيشه فـي ذلـك العـالم السفلي، وغالباً ما يعبر عن خلفيات العقل الباطن للسجناء، ومـن خلال الرؤى والأحلام نستطيع أن نتعرف عن كثب، عما كان يفكـر فيه السجناء وما هي آمالهم وآلامهم، وما هـي درجـة الخـوف والرعب والأمل والرجاء أو اليأس والقنوط التي كانوا يعيشـونها. وهي لا تعبّر بالضرورة عن مدى صدق تعبير الـرؤى وانطباقهـا على الأحداث المقبلة، الا في حالات محدودة ضمن حالـة السـمو الروحي والتجلي الرباني، التي قد تتجسّد بشـكل بشـارة وأخبـار غيبية، تخبرنا أحياناً عما سيحدث لصاحب الرؤيـا. وفـي قصـة يوسف عليه السلام التي تميّزت بكثرة الرؤى المنامية الصـادقة، سـواء ليوسف أم الملك أم السجناء مع يوسف، والتي كان أبرزهـا بعـد رؤياه التي قصها لأبيه وهو صبي، رؤيا السجينين معه حين أودع السجن ظلماً لبضع سنين. ولعل تأكيد القصة القرآنية على الصـلة بين السجن والأحلام، ما يشير الى جانب اعجـازي للقـرآن، فـي التعبير عن واقع السجون والمعتقلات، وما يجري فيهـا فـي كـل عصر وزمان. ومن خلال تلك الصورة القرآنية المعبّرة عن عـالم

الرؤى والأحلام في السجن، ما يبرر كثرة الأحلام والرؤى المنامية لمعظم المعتقلين، وما يطلق المجال لنا، لتسليط الضوء على هذا العالم الغيبي وما فيه من قصص ورؤى وتعبير للرؤيا وتفسير لها، قد يقترب أو يبتعد عن الحقيقة في تصويره للأحداث واستنتاج ما قد يحدث لنا خلال مدة الاعتقال وما بعدها، من توقعات وآمال كانت تراودنا في المعتقل. اذ ذلك الجو العام الذي كنا نتفاعل معه بشيء من الانشراح والتفاؤل، وكذلك الإكثار من ذكر روايات والقصص التي عشنا في جوها حول هذه الرؤى والأحلام، قد يعطينا تصوراً دقيقاً عن ذلك العالم الغريب الذي خلقه الإنسان لتكبيل الروح والجسد في ذلك البرزخ والمكان السحيق، دون أن نعوّل عليها في التفسير والتعبير للرؤيا، وفي البحث عن الجانب الغيبي لها الا على سبيل الاستئناس.

تزخر سورة يوسف في القرآن الكريم بالرؤى والأحلام، وهي تتحدث عن أثرها في الحياة وصدقها وتحققها ولو بعد حين، وتربط السورة بين حياة السجن والأحلام، حيث كانت قصة السجينين اللذين كانا مع سيدنا يوسف ﵇ في السجن. وقد رأوا في الرؤيا الخاصة بكل واحد منهما، جانباً مهماً من حياتهما المستقبلية، وقد تحقق تفسير النبي يوسف ﵇ لكل منهما على وجه التحقيق، وما آل اليه كل منهما من تحقق المصير، سواء بالنجاة أم الموت، بعد خروجهما من السجن، تماماً كما أخبرهما يوسف في تعبيره النبوي

الكريم. ذلك لأن رؤيا النبي حق وتفسيره حق أيضاً، لأن النبي موصول بالغيب عن طريق الوحي الصادق. وهذا غير متوفر لبقية للناس وهم يتصدون للتفسير حسب قدراتهم وعلمهم وخبرتهم الشخصية، التي قد تخطأ وقد تصيب، وهذا ما حصل لنا في السجن، سواء في كثرة الرؤى والأحلام أم الاجتهاد في التفسير والتعبير. أما قصة السجينين مع سيدنا يوسف عليه السلام، فقد قال أحدهما ليوسف إني أراني أعصر خمراً، وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه، وقد فسر يوسف عليه السلام لهما رؤياهما، ثم طلب من الذي ظن أنه ناج منهما أن يذكره عند الملك.. قال تعالى:

﴿ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما إني أراني أعصر خمراً وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين. قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمني ربي إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون. . . يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمراً وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه قضي الأمر الذي فيه تستفتيان. وقال للذي ظن أنه ناجٍ منهما أذكرني عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين﴾[٢١].

---

[٢١] سورة يوسف/ ٣٦- ٤٢.

ولا أبالغ اذا ما قلت أننا كنا نعيش نفس تلك الأجواء ونحـــن فـــي المعتقل، حيث كان عالم الرؤى يشغل مساحة واسعة مـــن حياتنـــا البرزخية، فكل سجين تقريباً كان يروي العديد من الرؤى أسبوعياً، بعضها كان واضحاً لا يحتاج إلى تفسير والبعض الآخر كان يحتاج إلى من يفسره، ولما كان دور النبي يوسف ﵇ لا يمكن إشـــغاله، كانت مسألة تعبير الرؤى وتفسيرها تعتمد على الخبرة الشخصـــية وعلى المعلومات البسيطة التي يمتلكها البعض، وقد كان في القاعة مفسر[٢٢] له خبرة جيدة في تعبير الرؤيا، ولكنه كان حزيناً متشـــائماً لا يؤمن بالفرج السريع من تلك الظلمات، وكنت أنا أحاول التفسير وتعبير الرؤيا مع خبرتي القليلة. وكان يغلب على تفسيري البساطة وروح التفاؤل بشكلٍ عام. ولما كان السجين لا يفكر إلا بـــالخروج من البرزخ وموعده، فقد كان المحور الرئيسي لأحلامنا ورؤانا هو موضوع الخروج من السجن، كما كانت رؤيا أصحاب يوسف ﵇، فقد كان السجناء بحاجة شديدة إلى تفسير متفائل لأحلامهم، لـــذلك كانوا يفضلون تعبيري لرؤياهم ولا يذهبوا إلى المفسر الآخـــر، إلا

---

[٢٢] كان هذا المفسر شاباً في العشرينيات من العمر، إلا أنه كان ذو ملكات شخصية وإدارية واجتماعية ناضجة، وعنده شيء من الجلد والصبر والحلم، مما أهله لأن يكون مراقباً علينا في القاعة ومسؤولاً عن تنظيم الغرفة المظلمة وتوزيع واجبات الطعام وترتيب أمورنا، وقد كانت هذه مهمات صعبة في تلك الظروف، وتحتاج إلى خبرة متعددة وشخصية قوية في الإدارة والتنظيم، ونتيجة لكفاءته في أداء واجبه أستمر في عمله هذا أشهراً عديدة.

عند اعتذاري عن تفسير بعض الأحلام لصعوبة فك رموزها، كما كان ذلك المفسر يأتي إلي كذلك لتفسير أحلامه. وكان يقول إني لا أستطيع تفسير أحلامي، مثل ما أمتلك القدرة على تفسير أحلام الآخرين.

لقد كان عالم الرؤى والأحلام جميلاً واسع الأجواء والظلال، ويجعلنا نعيش في خيال الأحلام وعالم الروح، خارج إطار ظلمة السجن وضيقه، كما كان يعطينا الأمل والثقة واليقين ويجعلنا أعمق صلة بالله سبحانه، وقد كنا نستشعر اللطف والرحمة والأنس الرباني، ونشعر بأن الله سبحانه كأنه يخاطبنا مباشرة عبر قناة روحية شفافة ورقيقة، تخفف من وطأة السجن وألمه، ويقذف في قلوبنا شيئاً من الرحمة والنور والهداية من خلال بعض الرؤى الطيبة والأحلام الشفافة الجميلة.

لقد كان من بين الرؤى الصادقة التي جعلتني متفائلاً أشهر طويلة، أني رأيت في ليلة من ليالي شهر رمضان أني سأمكث في ظلمة السجن مدة لا تزيد عن تسعة أيام. وكنت قد رأيت في هذه الرؤيا كأن رجلاً صالحاً بلباسه الأبيض الملائكي ينظر اليّ وهو مبتسم، ويؤشر بأصابعه بالرقم تسعة، وقد فسرت الرؤيا بأن المقصود هو تبشيري بأن مدة السجن سوف لن تتجاوز التسعة أشهر، في حين

أن المشاع بيننا أننا سنمكث سنين طويلة فـــي الســـجن[٢٣]، وفعـــلاً تحققت تلك الرؤيا وقضينا في ذلك السجن تسعة أشـــهر، وغيرهـــا كثير من الرؤى الصادقة لكثير من السجناء الآخـــرين، مـــن ذوي القلوب الشفافة والنفوس المقبلة على الله في تلـــك المحنـــة. كمـــا أخذت رؤى أخرى أشكالاً مبهمة وأضغاث أحلام وانعكاسات للحالات النفسية التي كنا نعيشها، وكان على المفسر الحكيم أن يميّز الرؤى الصادقة المعبرة عن تلك الأحلام والأضغاث، التي تـــأتي انعكاســـاً لحالة الرعب والخوف والمشاعر المضطربة التي يعيشها الســـجين في أوقات وظروف صعبة، لاسيما بعد حالات التحقيـــق والتعـــذيب والجوع والمرض وانتظار الأخبار المقلقة وغيرها. وأحيانـــاً كـــان الأمر يختلط فتكون في الرؤيا الواحدة رموز واضحة وصور مبهمة غير ذات معنى. وعلى كل حال، فإن عالم الرؤى والأحلام كان عالم متعدد القنوات، بما يشبه البث التلفزيوني العشوائي أو ما يســـمى بث الأطباق والأقمار الاصطناعية (أو بث الفضائيات)، ممـــا كـــان

---

[٢٣] لقد كانت الرؤيا في الحقيقة قد حدّدت الرقم سبعة وليس تسعة، ولكنني اضطررت الى جعله تسعة عند الكتابة، لأنني لم أكن أرغب أن أكشف هويتي، حين كتبت هذه المذكرات ثم طبعتها - بعد خروجي من السجن بمدة قصيرة – لأن الكتابة عن السجون وما يحدث فيها كانت من المحظورات، التي قد تؤدي الى الاعتقال أو الموت، فآثرت أن أغيّر بعض التفاصيل لكي لا تدلل علي، هذا من جهة ومن جهة أخرى أردت أن أرمز بالأشهر التسعة إلى ولادة حياة جديدة، بعد أن فرج الله علينا وأنقذنا من تلك الظلمات، تماماً مثلما يخرج المولود من بطن أمه الى الحياة بعد تسعة أشهر.

يعطينا الفرصة لقضاء وقت ممتع غير قصير يومياً، إضافةً إلى أنه كان يخلق جواً من التعايش الاجتماعي والتقارب النفسي بين السجناء، مما يمهد لنوع من التفاعل والتأثير المتبادل بيننا، تماماً كما تتحدث سورة يوسف عن تأثير يوسف على السجناء ونصحهم ودعوتهم للهداية والتوحيد من خلال تعبير الرؤى. والطريف أن وصية يوسف عليه السلام للسجين الذي خرج قبله، كانت تتكرر في عالمنا أيضاً، حين قال له: ﴿اذكرني عند ربك﴾، فكان كل سجين يخرج من السجن يوصيه الآخرون بأن يتصل بأهليهم ويبلغهم رسالة أو خبر في محاولة يائسة للسجناء لحث الأهل للعمل على توفير السبل الكفيلة للخروج من هذه الهاوية السحيقة. وهكذا يقدم القرآن الكريم تصويراً فنياً رائعاً للحياة في السجن وعلاقته بعالم الرؤى والأحلام، وتلك هي صورة لطيفة من صور البلاغة والإعجاز العديدة في القرآن الكريم، وبالنسبة لي شخصياً فقد رأيت أكثر من عشرين رؤيا كانت معظمها ذات دلالة واضحة ومهمة على الظرف الذي عشناه، وكانت بعضها تسبق الحدث وتشير إليه، وذلك من فضل الله علينا ولطفه ورعايته التي كنا نحس بها ونلمسها ونحن في غيابة السجن. والأغرب من ذلك أني قبل سجني بأشهر عديدة كنت أرى رؤيا متكررة بعدة صور وأشكال، ولكنها كلها كانت تدور حول محور واحد، وهو سرقة سيارتي الخاصة بمختلف الطرق

والوسائل، وكنت أفسر تلك الرؤى بأنها تعكس حالة من القلق على السيارة، بسبب كثرة سرقة السيارات في ظل الفاقة والحصار والتردي الذي عاشه العراق في مطلع التسعينيات، ولكن التكرار كان ملفت للنظر ولا ضرورة له، كما أن سيارتي كانت سيارة اعتيادية ولم تكن من النوع النادر أو الغالي، وبعدما دخلت السجن شعرت أن السيارة كانت ترمز للحركة والحرية، التي فقدتها فجأة وكأنها سرقت مني. وكانت تلك الرؤى نوع من التنبيه أو التحذير الإلهي الخفي لتلافي هذا القدر، ولكني لم أنتبه لمثل هذا التأويل وحدث ما حدث.

ومن الرؤى الأخرى التي سبقت السجن، والتي كانت لها دلالة واضحة عما حدث لي فيما بعد، رؤيا الكعبة المشرفة، حيث كانت الرؤيا في منتصف شهر محرم وقبل بضعة أشهر من محنة السجن هذه[٢٤] ، إذ رأيت في منامي أني أقف داخل غرفة الكعبة المشرفة، وأقوم بإعادة بناء الكعبة مع خمسة عاملين آخرين معي، وكان عملي في المجموعة مساعد رئيس البنائين. وكنت أناوله الإسمنت لإكساء جدار الكعبة من الداخل، وكانت حجرة الكعبة من الداخل ذات نورٍ وضياءٍ أبيضٍ ساطعٍ وساحرٍ يبهر الأنظار، وكانت مادة الأسمنت هذه تعطي للناظر شكلاً بلورياً شفافاً، لا يؤذي ولا يترك

---

٢٤ أي في ١٥/١/١٤١٥هـ الموافق ٢٥/٦ /١٩٩٤م.

أثراً عند لمسه والتعامل معه، وكأنها مادة قد جلبت من تراب الجنة. وكان البنّاء حين يضع مادة الطلاء (الاسمنت) على جدار الكعبة، يتلألأ الجدار وكأن قوامه فيما يبدو للناظر من اللؤلؤ المطعم بالدر والياقوت، لكي يعطي البهجة والسرور لكل من يدخل هذا المكان المبارك. وكان الحائط بعد إكسائه يبدو محززاً بلورياً منثوراً، بحيث يبدو وكأن الفناء أوسع من الحجم الحقيقي للحجرة. وكان يبدو لي أن قلب الكعبة مضاءٌ بدون مصدر للإضاءة، كأنه كوكب دري يوقد من شجرة مباركة، فسبحان الله العلي العظيم الذي وهب لنا الكعبة المشرفة قبلةً لنا، ووضع لنا بيته المقدس في هذه الأرض المباركة، كما وضع لملائكته في السماوات العلى البيت المعمور، لكي نعبده حق عبادته ونطوف حول بيته المحرم ونسبح بحمده الى يوم يبعثون. وبعد أن تم اكمال العمل في بناء الجدران، كُلِّفنا بإعادة بناء الأرضية والبلاط، غير أني رأيت في وسط أرضية الكعبة، تجويف وفتحة مغطاة تشبه ما يعرف بالـ (مين هول) في البناء المعاصر. وهذه الفتحة تؤدي إلى قناة طويلة تمتد الى الداخل، وتكاد تصل إلى مكان سحيق تحت الأرض. وقد سألت بعض المفسرين ممن لهم خبرة في تعبير الرؤيا ومنهم والدي، الذي عُرف في الأوساط الشعبية في محلتنا أنه مفسرٌ جيدٌ، فأكدوا لي بأنها رؤيا صالحة، وأني أقوم حالياً ببعضٍ الأعمال التي تنفع الناس وتخدم الدين والمجتمع. ولكنهم فسّروا تلك الفتحة في وسط

أرضية الكعبة، بأنها ترمز إلى وجود خطر قريب مني، مما يستلزم الحذر وإلا وقعت في تلك الحفـرة، التـي سـتجرني إلـى مكـان سحيق[٢٥]، فاستغربت من هذا التأويل، لأني لم أكـن أشـعر بـذلك الخطر وتلك الهوة السحيقة، إلا بعد أن عشت مع أقراني في ظلمة هذا البرزخ وهذا البئر المظلم، الذي شهدنا فيه كل تلـك المعانـاة وصور التعذيب النفسي والجسدي والبعد عن عالمنا الذي كنا فيه.
لقد عشت دهراً من الزمان أتمتع بالحرية والحركة الدائبة، وكنـت أصول وأجول وأسمع وأرى وآكل وأشرب وأتفاعل مع العالم مـن حولي، فإذا بذلك كلّه يتوقف فجأة، وتتبدل تلك الحياة بحياة البرزخ الحالية، والتي هي أقرب إلى عالم الأموات، لا يميّزها عن ذلك غير الأمل بالعودة للحياة الطبيعية، فسبحان الله القاهر فوق عباده وهو اللطيف الخبير.
لقد كانت الرؤى والأحلام في الأسبوع الأول من الاعتقال مشوشـة ومضطربة، ولكن سرعان ما تحسن البث ووضحت الصورة، فقـد رأيت في إحدى الليالي الأولى بعد الاعتقال، أنني ذهبت مع أخوتي

---

[٢٥] لقد كنت أعمل في مكتب المختار الذي أسسته سنة ١٩٩١م، وكان لهذا المكتب نشاطاً إعلامياً بسيطاً. وكان يقوم بنشر بعض الكتب الإسلامية الفكرية والتربوية، التي كانت محظورة آنذاك، لاسيما كتب الفكر والدعوة والاصلاح، فضلاً عن العمل في مجال الحاسبات والطباعة والتنضيد الإلكتروني. وربما كانت بعض هذه النشاطات في ظل نظام الاستبداد وكبت الحريات، هي مصدر الخطر والمكان السحيق الذي رمزت إليه الرؤيا والله أعلم.

وخالي إلى بيت امرأة كبيرة في منطقة باب الشيخ في بغداد، وحين دخلنا بيتها ورحبت بنا طلبت مني أن أغسل في بيتها، فذهبت إلـــى الحمام وإذا به بئرٍ مبني من المرمر (الرخام) والزجاج الفاخر، ثـــم دخلت البئر وكان الماء متقطعاً، حيث اغتسلت ثم خرجت من البئر، وفي الصباح ذكرت ذلك لأصحابي الذين كانوا معـــي فـــي موقـــف المركز الرئيسي، وبعد بضع ساعات من تبادل الحديث حـــول تلـــك الرؤيا، تم نقلنا إلى بئر الزنزانة دون بلاغ مسبق، ولم يكن لـــدينا فكرة واضحة عن الزنزانة (تلك الغرفة المظلمة) وما فيها، ولكننـــا كنا نعلم أنها أسوء من الموقف الذي نحن فيه فقط، وحـــين رأينـــا الزنزانة شعرنا أنها أكثر ضيقاً من البئر وهي معدة خصيصاً للعذاب والاذلال لكل من يدخلها من النزلاء، ومع ذلك فيمكن القول أيضـــاً أن الله قدرها لنا لكي يطهرنا من الـــذنوب والأدران باذنـــه. لقـــد تكررت مثل هذه الرؤيا في الزنزانة نفسها فـــي الأســـبوع الثـــاني والثالث وبأشكال وصور عديدة، معي ومع بعض السجناء الآخرين، حيث إن هذه الرؤى كانت تؤكد على فكرة الغسل بالماء في النهـــر أو البئر للتطهير من الذنوب والخطايا. وقد رأيت فيما يرى النـــائم أني أسبح في النهر مع أقراني السجناء ومعنا أخي الأكبر، وهـــذه الرؤيا ربما ترمز إلى أن التطهير لا يشمل الســـجين فقـــط، وإنمـــا يطهر الله سبحانه بالمحنة الخاصة، محنة العبد المبتلـــى، لتشـــمل أهله وإخوته، وهذا ما تم فعلاً في واقع الحال، فنفوسنا ونفوس من

يخصنا قد تطهرت وارتقت خلال هذه المحنـــة. ولا شــك إن تلــك المحنة التي تعرضنا لها، هي في الحقيقة فتنة واختبار، سواء أكان لنا ولأهلينا أم للآخرين الذين أودعونا السجن ظلماً وعدواناً.. قـــال تعالى: ﴿واتقوا فتنة لا تصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصة﴾[٢٦].

واستطراداً للحديث حول الرؤى والأحلام، يمكن أن نضيف شيئاً من أحلام اليقظة أو الحدس والتنبأ ببعض الإرهاصات والأحداث، التـــي ستحدث كنوع من اليقين والثقة بالله ونصره للمظلومين. فقد ذكــر أحد رفاقي في المعتقل وفي الأيام الأولى لاعتقالنا حادثـــة طريفـــة حدثت له[٢٧] فقال بأسلوب ساخر: هل تعلمون يا أخـــوة المحنـــة إن الحرب الطويلة التي حدثت قبل خمسة عشر ســـنة بـــين العـــراق وإيران، قد حدثت بسببي؟ فتعجبنا من ذلك الادعاء غيـــر المعقـــول

---

[٢٦] سورة الأنفال/ ٢٥.

[٢٧] إن هذا الشخص هو كاتب المذكرات، ولكني حاولت التمويه عن شخصيتي في وقت كتابة الحادثة داخل الزنزانة، وبعد الخروج من المعتقل في الطبعة المحدودة سنة ١٩٩٥م، لعدم ثقتي بالظرف المحيط بي، ومن امكانية استغلال الحادثة ضدي من قبل النظام وأجهزته، سواء في الوزارة أم أجهزة الأمن السرية. والآن أثبت الحقيقة كما حصلت، لغرض العبرة مما حدث بعد أن أصبحت الأحداث قديمة. وفي ذلك يقول الامام علي عليه السلام، في إحدى حكمه التي عُرف بها، وهو يعلمنا أدب الكلام وتوقيت البوح به، فيقول: ما كل ما يعرف يقال، ولا كل ما يقال جاء أوانه، ولا كل ما جاء أوانه حضر رجاله.

ومن جرأته تلك، وسألناه باستغراب وقلنا له: كيف حصل ذلك؟ فأجاب بنفس البساطة – وهو ما حدث له فعلاً وواقعاً – فقال: في يومٍ ما قبل سنين طويلة كنت أعمل في إحدى الوزارات (الصناعة)، وبسبب عداء شخصي بيني وبين مديري المباشر، اتهمني هذا المدير ظلماً وعدواناً بالتعمد في عرقلة العمل والإضرار به، واختلق لي قصة لا أصل لها، بهدف الإيقاع بي واتهامي بالتخريب وعرقلة الانتاج، واقترح هذا المدير إلى وزير الصناعة، وكان من الأشخاص المقربين له، بأن يأمر بتشكيل لجنة تحقيق، يكون هو أحد أعضائها للتحقيق في الحادث ورفع التوصية المناسبة، وقد كان لهذه اللجنة الوزارية صلاحية الطرد والحبس، لمن تطاله التوصية وتتهمه بالتقصير، وكانت هذه الخطة التي دبرها هذا المدير من الدقة، بحيث لأنه كان قد نفذها قبل سنة من ذلك الحادث، مع موظف في شركة أخرى من شركات الوزارة، وأودعه السجن لمدة عشر سنوات، وكان الدافع وراءها شخصياً أيضاً، وما أكثر الدوافع الشخصية والزور والبهتان والغدر والظلم والتهم الباطلة في دول الشرق والعالم الثالث المتخلف[٢٨]. وكادت هذه

---

[٢٨] تأبى عدالة السماء إلا أن تعاقب بالمثل – ولو بعد حين – فإن الله يمهل ولا يهمل.. فحين أفرج عنا التقيت بصاحبي بعد أيام من خروجنا، وذكر لي ما حصل لهذا الشخص المسكين، وكان قد أصبح مديراً عاماً في المؤسسة التي يعمل فيها، فقال لي: ألا تعلم أن فلاناً، قد حكم عليه أمس بالسجن لمدة عشر سنوات بتهمة سرقة أموال الدولة؟ فتعجبت

الخطة أن تودي بي وبحياتي الوظيفية وترميني في السجن، لـــولا تدخل العناية الإلهية التي أنقذتني بدون سبب أو مدد من أحد، حيث منعت من ممارسة عملي لمدة عشرة أيام، وجلست اللجنة الوزارية تناقش تقصيري وتحقق معي، وإذا بفتيل الحرب بين العراق وايران يبدأ بالاشتعال في نفس هذا الأسبوع، وتتبدل الظـــروف وينشـــغل الوزير وينقل هذا المدير المفتري، ويهمـــل الموضـــوع لتفاهتـــه، وينقذني الله سبحانه بأعجوبة، وتتثبت لدى الجميع براءتي وزيـــف ذلك المدير وكذبه، وهكذا دفع الله عني ذلك الخطر المحدق، وكـــان اشتعال فتيل تلك الحرب هو السبب الرئيسي في احباط خطة ذلـــك الرجل وفشل مكيدته[٢٩]. وبعد أن قصّ علينا تلك القصة الغريبة قال: ومن يدري لعل شيئاً يحدث يغير مجرى الأحداث ويثبـــت براءتنـــا

من ذلك الخبر وقلت له: سبحان الله هل تذكر قبل سنين حين خطط لسجني واتهمني زوراً بالتخريب والتعمد بتعطيل ماكنة، ولكنه لم ينجح، وقد تسبب قبلي في سجن رجل بريء وكان مهندساً في شركة صناعية أخرى، ولمدة عشر سنين أيضاً، فقال لي: نعم أذكر ذلك، ولكنه قد تغير وصلحت حاله. فأجبته: ولكن حكم الله ينفذ، ولا بد من تحقق العدالة في الدنيا والآخرة، وإن كان قد صلح حقاً فسيثبت في تلك المحنة، وإلا فسيكون كمن يعبد الله على حرف، فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على عقبيه.. فقال صاحبي: صدقت..

[٢٩] لقد كانت مثل هذه التهم والمكائد ورمي الأبرياء في السجون، نتيجة تهم كاذبة وبدعاوى كيدية، هي الصفة الغالبية للبلد، سواء في الوسط الوظيفي أو الحزبي، واستمر هذا الحال أكثر من ثلاثين عاماً، حتى نخر الحصار بالناس وعاد البعض إلى الله، وتغيرت سياسة النظام في أواخر التسعينات جزئياً.

ويؤكد أننا قد ظلمنا وسرقنا وعذبنا.. والطريف أن هذه النبوءة قد تحققت بشكل كامل، وإن البراءة قد علم بها القاصي والداني داخل المعتقل وخارجه، وفضح الله الظالمين ممن نصب لنا الفخ وسبب اعتقالنا لكي يؤذينا ويودعنا السجن دون ذنب يستحق ذلك المصير، فانتقم الله لنا وقهر أعداءنا سواء الضباط الذين حققوا معنا واستخدموا وسائل خبيثة للإيقاع بنا، أو وكلاء الأمن الذين كادوا لنا وسلبوا بضاعتنا وسرقوا أموالنا، وفي أقل من شهر من دخولنا المعتقل حدث العجب وانتقم الله لنا ممن ظلمنا..

وفي رؤيا أخرى لأحد المعتقلين في الزنزانة، رأى أحد أصحابي في المنام، أننا نعبر نهراً عريضاً مع مجموعة من السجناء الذين معنا، ففسرتها له بقرب الفرج والخروج، وقلت له: اطمئن يا أخي سنخرج من السجن بعد إكمال العبور الروحي، فلنعمل جاهدين على تعميق الصلة بالله والدعاء وقراءة القرآن.

وفي رؤيا مهمة رأيتها في إحدى ليالي الشتاء الباردة، وهي أننا نُقلنا من السجن إلى مستشفى قريب من مسكني وأودعت في إحدى غرف المستشفى، وكان فيها أحد السجناء المقربين مني، فنظرت في الغرفة فرأيت سيفاً من البلاستك معلقاً على الجدار، فأخذته وطعنت ضابط الأمن قبل أن يغادر الغرفة فقُتل في الحال، ثم خرجت أنا وصاحبي من المستشفى وذهبنا إلى مساكننا، وقد رأيت سياج بيتي قد تهدم وزوجتي تقص على النساء من حولها قصة براءتي

وإن الزمن سيثبت ما تقول، وحين رأيتها لم تفرح كثيــراً، وكنــت مستغرباً من دفاعها عني وعدم فرحها بدخولي البيت، فقالت لـــي بعد خروجي: إني كنت ألومك في نفسي لأنك جعلت الناس ينتقدونك في شيء أنا أعلم أنك بريء فيه، ولكني لا أستطيع الدفاع عنــك، مما جعلني خلال الأشهر الأولى حزينة ومتعبة بسبب تلك الظروف، وقد كنت أظن انك أكبر من أن يخدعك هؤلاء الذين خططوا لسجنك وغلق مكتبك. فأيدت ما ذهبت اليه وذكرتها بأن القدر يغلب الحذر. غير أن رموز الرؤيا في المستشفى وقتل الضابط كانت أكثر أهمية وأكثر أثراً على الأحداث اللاحقة في السجن، فقد تحققت هذه الرؤيا بعد أقل من أسبوعين، حيث وصلتنا الأخبار من بعــض الســجناء الذين قدموا من الموقف الرئيسي، بأن هناك فوضى في دائرة جهاز الأمن الرئيسية، حيث أن أحد منتسبي هذه الدائرة قد سرق مبلغــاً ضخماً من الخزينة في الدائرة، وهرب بها خارج البلــد، ممــا أدى إلى اعتقال المتورطين في قضايا الاستدراج والكمــائن مــن قبــل ضباط الأمن، لاسيما الضباط الذين حققوا معنا وضــربونا، ممــن اشترك في سرقتنا واعتقالنا ظلماً وعدواناً. وبعد أسبوع مــن هــذا الحادث تم اعتقال كافة وكلاء الأمن الذين كانت لهم علاقة بهــؤلاء الضباط، حيث ثبت أنهم قاموا بنصب الكمائن وســرقة المــواطنين الذين ورطوهم، وزعموا ان تلك الأعمال كانت تجري بــدون علــم قادة الأجهزة الأمنية، وانما هي اجتهادات ضباط الأمــن للحصــول

على مكاسب مادية اضافية، وابتـزاز النـاس بواسـطة اسـتغلال سلطتهم ومناصبهم الأمنية.

وهكذا تم وضع المتهمين من الوكلاء والكوادر الأخرى المتورطـة معهم في الزنزانة التي تحتنا في الطابق الأرضي. وقد اعتبرونا من ضمن الشهود على أفعالهم وسرقاتهم. وتم استدعاؤنا فعلاً للشهادة واعترفوا بالسرقات والجـرائم التـي اقترفوهـا بحـق الأبريـاء، واعترفوا أيضاً بمن كان وراءهم من ضباط الأمن. وكانـت هـذه الفضيحة من الفضائح التي قصمت ظهر جهـاز الأمـن وأدواتـه التنفيذية في البلد. وثبت للدولـة والقـائمين عليهـا أن (حاميهـا حراميها!) كما يقول المثل العراقي الدارج. وقد أثّر هـذا الحـادث على الخطة الأمنية بشكل عام، وغيّر أسلوب التفكير فـي طريقـة عمل دوائر الأمن في التسعينيات، وأساليب التـوريط والاسـتدراج غير القانونية ونصب الكمـائن لتلفيـق الـتهم الجـاهزة للنـاس المستهدفين، كتلك التي أتبعت معنا من قبل ضباط الأمن ووكلائهـم على سواء. وصدرت تعليمات جديدة بعد تلك الفضيحة، تشدد على مراقبة ظاهرة استغلال المنصب الأمنـي للوشـاية والاسـتدراج، لتحقيق مكاسب ومصالح شخصية، لصالح كـوادر أجهـزة الأمـن المتنفذة، والتي كانت تعاني من الفساد والـتعطش لسـرقة قـوت الناس، بسبب ضغط الحصار الدولي والاقتصاد المتردي، والتضخّم الذي عمّ البلد وشلّ العمل الحكومي في ذلك الحين، حيث تضاعف

سعر الدولار الى أكثر من ثلاثة آلاف ضعف، فأصبح سعر الــدولار حولي ١٠٠٠ دينار، بينما كان سعره في الثمانينيــات ٠,٣٥ مــن سعر الدينار العراقي. ومن المعلــوم أن ذلــك الوضــع المتــردي لمؤسسات الدولة والاقتصاد بشكل عام، قد أثر على سلوك النــاس وطباعهم وأخلاقهم، حيث انتشرت الجريمة المنظمــة والســرقات والرشوة والمحسوبية في البلد، سواء في دوائــر الدولــة أم فــي القطاع الخاص. لقد شاء القدر أن نسمع أصوات صــراخ هــؤلاء المتهمين الفاسدين، الذين كُشفت جرائمهم بعد تلك الســرقة داخــل الأمن نفسه، حيث كان صراخهم عالياً من جرّاء التعذيب والضــرب المبرح الذي تعرضوا له. وقدّر الله أن يجعلهم تحت رحمتنا، حيــث عاشوا طول الأشهر التي تلت اعتقالهم في الذل والجوع والعــذاب، وكانوا يستعطفوننا ويستجدون لقمة الطعام، بعدما فــتح الله علينــا باب الرحمة والمواجهة، وأصــبح الطعــام يصــلنا بــوفرة وهــم محرومون منه. وهكذا تحققت تلك النبوءة والبشارة التي رأيتها في الرؤيا، تماماً كما أكدت تفسير قتل الضابط في الرؤيا علــى انتقــام الله لنا، ونصره للمظلوم، وفضح الباطل، بسيف واهن من البلاستك ذو تأثير خفي ولكنه أصاب المقتل في الصميم بتلك الحادثــة غيــر المتوقعة. فكانت فضيحة يحق لنا أن نفخر بها ونتشفى من أعدائنا،

ونسخر من مكرهم الوضيع أمام المكـــر الإلهـــي العـــادل العزيـــز: ﴿ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾[30].

وبعد تلك الفضيحة، وسجن من سجن من الضباط وعملائهـــم مـــن المرتزقة، أتت هذه الفضيحة على الفاسدين والمستفيدين من ظلـــم وأذية الناس الأبرياء، ونصب المكائد لهم، بحجـــة خدمـــة الأمـــن والبلد، وأثبتت تلك الحادثة أن هذه الدائرة الأمنيـــة ليســـت أهـــلاً للمسؤولية، وأن كادرها كان غير أهل للثقـــة وينبغـــي أن يبـــدل، وخلال أسابيع تم نقل من نقل من المقصرين وأعيـــد تنظـــيم هـــذه الدائرة.

ومن المفيد أن نذكر أن مدير الـــدائرة ومســـاعدَيه الـــذين كـــانوا يحققون معنا واستخدموا وسائلهم القذرة في التحقيق، الذي ذكرنـــا جانباً منه في هذه المذكرات، هم أهم من اتهم في هـــذه الفضـــيحة وتم سجنهم في رأس القائمة، ورابعهم كلبهم الموظف الـــذي قـــام بالسرقة. وقد جاءوا بأهله وأصدقائه وأودعـــوا الســـجن بتهمـــة التستر على السرقة! وهكذا نرى في هذه المحنة عدالة الله ماثلـــة أمامنا مرة أخرى، يبشرنا الله سبحانه بها قبل حدوثها فـــي رؤيـــا صادقة، ثم نرى تفاصيل وقوعها – بعد ذلك – كمـــا قـــال ســـيدنا يوسف عليه السلام لأبيه في تحقيق رؤياه: ﴿يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد

---

[30] سورة الأنفال/ ٣٠.

جعلها ربي حقاً، وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي، إن ربي لطيف لما يشاء، إنه هو العليم الحكيم﴾[٣١]. كان سيدنا يوسف نبياً من المقربين استطاع أن يصبر ثلاثين عاماً من حالة الاغتراب والنفي والسجن ليرى تحقق الرؤيا، وقد كان الله سبحانه رؤوفاً بنا إذ لم يتركنا إلى أنفسنا وإيماننا، فاستعجل لنا تحقيق الرؤيا وأكرمنا بهذا الفضل بعد أشهر قليلة من دخولنا.. فسبحانه من إلهٍ كريمٍ رحيم لطيف عليم بعباده حكم عدل مجيب الدعاء. وقد كنا في غيابة السجن لا نفتر من الدعاء، وكان أهلنا كذلك طيلة أشهر المحنة خارج المعتقل، فسبحان الله والحمد لله على مننه ونعمه، إنه نعم المولى ونعم النصير.

لقد كنا نفكر مع أنفسنا ونحن نعاني الأمرين من تلك الصورة المزرية التي عشناها في المعتقل ونقول: هل هذا هو فعلاً واجب رجال الأمن؟! وهل هذا هو أسلوب الدول مع رعيتها؟! أيُترك السراق والمجرمون من القتلة والفساق على مرأى ومسمع من الناس، ويسجن الأبرياء والشباب المثقفون، لأدنى شبهة أو تهمة تلصق لهم لتغييبهم عن انظار المجتمع، أو بحبائل من رجال الدولة

---

[٣١] سورة يوسف/١٠٠.

أنفسهم؟؟!. ولكن للأسف نجد أن ذلك ما يحصل في دول الشرق[٣٢]. لكنه مع كل ذلك الفساد والظلم.. كان الله لهم بالمرصاد.. ﴿وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾[٣٣].. فأرانا الله بعضاً من آثار رحمته وعدالته في الدنيا، أما في الآخرة فإن للمؤمن ما يرضيه ويقر عينه ويثلج قلبه.. وان الآخرة خيرٌ وأبقى..

هنالك رؤى وأحلام كثيرة كان السجناء يقصونها علينا ويأملون من خلالها خيراً، منها أن أحدهم رأى رئيس الدولة[٣٤] يزورنا ويبلغنا عن بشرى عفو للسجناء، وآخر – وهو شاب صغير – يراه ويزوره في قصر ذي حديقة ويبلغه عن العفو، وفعلاً صدرت ثلاث إعفاءات وزارية آخرها عفو سياسي، ولم تشملنا جميعها وشملنا عفو صادر من رئيس الدولة، أُبلغنا به بعد ذهابنا إلى بناية في

---

[٣٢] استخدمت عبارة دول الشرق عند كتابة المذكرات داخل السجن للتعميم وعدم تخصيص الدولة التي وقعت فيها أحداث هذه المذكرات، نظراً لاعتقادي بخطورة وقوع هذه المذكرات بأيدي الأجهزة الأمنية، التي لا تسمح بهذا الكلام ولا يجرؤ أحد على الكلام بمثله أو أقلّ منه في ذلك الوقت.

[٣٣] سورة الشعراء/ ٢٢٧.

[٣٤] هنا أيضاً لم أجرؤ على ذكر أسم الرئيس في المذكرات، رغم أنه جاء في سياق الكلام عن رؤيا، لئلا يعلم أحد أن مكان الأحداث كان العراق.

مكان آخر[٣٥] وكان يحيط بها زرع وحدائق حيث تم إبلاغنا بقــرار العفو..

أحلام ورؤى كثيرة في ظلمة السجن لا يتسع المجال لاستعراضــها كلها، كانت تعطينا الأمل والتفاؤل والقوة الروحيــة لتحــدي ظلــم الطغاة الذين أوجدوا هذا النوع من المعتقلات، التي كانت تخلو من الحد الأدنى لاحترام الانسان وحفظ حقوقه في المعتقل، كما تــنص عليها اللوائح والقوانين التي ثُبِّتت في منظمــات حقــوق الانســان الدولية.

من الرؤى اللطيفة والجميلة كانت رؤيا العمرة وزيارة الكعبة، حيث تكررت ثلاث مرات خلال الشهرين الأولين من المحنة، مرة حــين كنت أطوف فيها حول الكعبة، ومرة أخرى حين كنت مسافراً فــي الطريق إلى الكعبة، وفي الثالثة على متن طائرة لأداء العمرة.. وقد علمت بعد شهرين من تلك الرؤى المبشرة ومن خــلال الرســائل السرية التي وصلتني من الأهل، أن أحد إخوتي كان يعتمر في نفس وقت الرؤيا، وقد كان يدعو لنا فــي بيــت الله الحــرام، بــالفرج والخلاص من ظلمة السجن. ويبدو أن هذه الرؤيا كانت كأنها جزء من لقاء الأرواح، وأشبه بحالة الإستشعار عــن بعــد (فــي علــم الباراسايكولوجي) بما كان يجري حول الكعبة المشرفة والله أعلم.

---

[٣٥] المكان كان مديرية الأمن العامة في حي البلديات وكانت المديرية مكونة من بنايات حديثة تحيط بها حدائق واسعة وعديدة.

وفي رؤيا أخرى في فجر إحدى ليالي شباط الباردة خلال شهر رمضان في الغرفة المظلمة، وقد كنت قبل النوم وفي منتصف الليل قد لعبت (لعبة المحيبس) [٣٦] مع مجموعة المراقب، وكنت أستحرم وأرفض اللعب مقابل شيء مادي، لأنه أشبه بلعب القمار أو المراهنة المحرمة شرعاً، ولكن بعض اللاعبين أجبروني على المشاركة في اللعب مقابل تمرة، أي أن من يخسر في اللعب يدفع تمرة للشخص المقابل له، وشاء القدر أن نفوز على الفريق الآخر، فأعطاني الأخ أبو أحمد وهو الخاسر أمامي تمرة (وقد كان هذا الرجل أحوج مني لهذه التمرة بسبب ظرفه وصحته)، فشكرته ورددتها إليه، ولكنه أصرّ على عدم أخذها مني وقال باللهجة العراقية: يا معوّد هذا لعب فيه ربح وخسارة. فبقيت التمرة معي ولكني لم آكلها في حينها. ورأيت في المنام أني كنت في مطعم صغير في مدينة بلدروز (وهي مهد طفولتي ومسقط رأسي) قرب الجسر الرئيسي القديم في منطقة السوق الكبير، وكان أمامي صحن فيه أكل نباتي بسيط (فلافل وخضراوت)، وقد أخذت خلسة من الصحن الذي بجانبه، قطعة أخرى ووضعتها في صحني، فجاءني المرحوم السيد نجم الدين وهو عمي [٣٧] وكان واقفاً خلفي، وقال لي:

---

[٣٦] المحيبس أو البات لعبة بغدادية شعبية معروفة. وهي جزء من طقوس شهر رمضان، حيث تمارس ليلاً بعد التراويح في معظم مدن العراق.

[٣٧] وهو السيد نجم الدين محي الدين المدرس، من بيت آل وريّد الحسني. كانت عائلته تقطن محلة باب الشيخ في بغداد خلال القرن التاسع عشر، ثم هاجر والده الى بلدروز في ديالى للعلم والارشاد، بطلب من أهالي الناحية. وقد ورث رحمه الله عن والده العلم

لا.. هذا لا يحق لك، أرجع القطعة إلى مكانها فأرجعتها، فقمت من نومي قبل الفجر فأيقظت أبو أحمد، وقلت له: أرجوك يجب أن تأخذ التمرة، فتعجب من الأمر، لأن التمرة في ذلك الظرف كانت تعتبر شيء غالي وثمين، فأخذها وهو فرح بها، ثم قصصت عليه الرؤيا، فقررنا أن لا نلعب المحيبس أو أي لعبة أخرى من الألعاب الشعبية مقابل شيء مادي أو مالي، لأن ذلك يدخل في مجال القمار والرهان المحرم شرعاً، وهي الاشارة الرمزية التي استذكرناها من خلال هذه الرؤيا اللطيفة.. وقد فرحت بتلك الرؤيا، لأن عمي هذا كان من أبرز شيوخي، وله مكانة خاصة في قلبي، وقد درست على يديه علوم القرآن والفكر الاسلامي، وتعلمت منه في شبابي الكثير من العلوم والآداب والتصوف الرباني.

والفقه، فكان من أبرز علماء المحافظة حتى وفاته سنة ١٩٩٢م. وكان يتصف بالورع والتقوى والشجاعة أيضاً.

أثر العناية الإلهية في المعتقل:

لم تتجلى آثار العناية الإلهية في مكان كما كانت بارزة في الزنزانة، فلقد كان لطف الله بنا وعلمه بضعفنا لا ينقطع، بحيث أصبح واضحاً لدينا بأنه إن لم يكن ذلك المدد كان الهلاك المحقق، وكان الفشل في تجاوز المحنة في مختلف صورها. فحين نكون في موضع العسر والابتلاء والعذاب المهين، تظهر رحمة الله ويظهر مدده للتخفيف عنا من تلك المعاناة ومدنا بالزاد لمواصلة الطريق. فرغم شدة المحنة وجسامة الخسائر، إلا أننا – بالصبر والتوكل على الله – كنا نستشعر الطمأنينة تسري في نفوسنا. وكان كتاب الله يخاطبنا ويقص علينا ثواب الصابرين وما أعد لهم في جنات النعيم، حيث لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. قال تعالى: ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾[٣٨]، ومعنى هذا النص الكريم: بغير حساب أي جزاءً مفتوحاً بلا حدود، يشبه صكاً موقعاً على بياض، يُعطى للمؤمن الصابر على الظلم والفتن وهو في جنة الخلد، فيرتقي به إلى الفردوس الأعلى حيث الجنان العالية، التي من صور النعيم فيها أن قطوفها دانية للمؤمنين. قال تعالى: ﴿وجوهٌ يومئذٍ ناضرة. إلى ربها ناظرة﴾[٣٩] فما أعظم الصبر على

---

[٣٨] سورة الزمر/ ١٠.

[٣٩] سورة القيامة/ ٢٢ – ٢٣.

البلاء إذا كان في زنازين الأمن ودهاليزه السرية، وما أعظم المصابرة والمرابطة والثبات على الحق دون كلل أو تعب..﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾[٤٠]. لقد شعرنا في هذه المحنة في المعتقل وفي غيره، مما يماثله ويزيد عليه في دول العالم الثالث، أن الصبر ينمو ويزداد مع الإيمان والتقوى. فقد كان الأمر في البداية أمراً صعباً، ولكنه أصبح مع الأيام جزءً من المحنة، ولعل ذلك كان من أهم ملامح العناية والرحمة الإلهية، لاسيما عندما نرى من سبقنا من السجناء وقد مكثوا سنة أو سنتين دون محاكمة أو أمل بالخروج. ومن صور العناية الإلهية بنا أن الله سبحانه كان يمدنا بما نستشعر الحاجة له، فنحصل على الدواء حين نمرض بطريقة غير متوقعة أو الطعام حين نجوع، وكذلك مدد العلم والعبادة والصلة بالله. فقد كانت المصاحف ممنوعة التداول قبل مجيئنا، فسمحوا بها مع دخولنا المعتقل، كما أرسل الله لنا رجلاً له من العلم والفقه ما يعين على العبادة في الأيام الأولى لاعتقالنا. وقد بقي معنا شهراً كاملاً يعلمنا الذكر والعبادة والمأثور من السور والأحاديث الشريفة وكيفية إحياء السنن المناسبة، ومنها سنة قيام الليل والتهجد وصلاة الضحى، وغيرها مما كنا نقرأه في الكتب دون أن نطبقها في عبادتنا قبل المحنة. ثم جاء رمضان في

---

[٤٠] سورة آل عمران/ ٢٠٠.

شهر شباط وكان له دوراً طيباً في ترسيخ تلـك العبـادات ورفـع المستوى الروحي والقرب من الله سبحانه. ولقد شاء الله أن يفرج عن ذلك الرجل الطيب، فينادى على اسمه للخروج مـن المعتقـل، وفي نفس ساعة الخروج يدخل السجن رجلان كريمـان مـن ذوي العلم الشرعي والروح المؤمنة أيضاً، مما أتاح لنا مواصلة تلقـي الزاد الروحي والعلمي، للوصول إلى ما شاء الله أن نصل لنواجـه ظرفنا الصعب، وهكذا تترادف العناية والإرادة الإلهية لتوفير الجـو الروحي لإعادة البناء النفسي والروحي لنفوسنا المتعبـة، لتخـرج بعد الابتلاء –بإذن الله– أصلب عوداً وأقوى شكيمة، لكـي نكـون أهلاً لذلك الأجر والثواب الذي أعد للصابرين إن شاء الله.

لقد كان لتلك الآثار الإلهية والعناية الرحيمة، دور مهم في مقاومة ظروف المعتقل الصعبة، ورفع الروح المعنوية والقدرة على التحمّل للعبور الناجز الى شاطيء الأمان والاستمرار في أداء الرسالة.

ولقد كانت فضيحة السرقة وسجن الضباط والوكلاء أيضاً من آثـار رحمة الله وعنايته بنا، لكي نستيقن بتجلّي عدالة السماء ونستشعر أن الله معنا ويقرّ عيوننا بتلك البشائر. أما فراق الأحبة من الأهـل والأطفال، فرغم الألم والمعاناة التي كانت تعصـر القلـب وتـدمع العين، حيث مضت أكثر من خمسة أشهر وأنا لم أرَ أهلي وأطفالي، إلا أن ذلك لم يكن يخلو من حكمة وأثر تربوي وقيمة إيمانية، فإن النبي إبراهيم عليه السلام حين أراد ذبح ابنه إسماعيل عليه السلام، وتنفيـذ إرادة

الله، قد ذبح إبنه قبل ذلك من قلبه وجعل قلبه خالصاً لله من أي شائبة، وكذا فراق الأهل والأولاد، فهي تصفية للقلب من الشوائب والأخلاط الدنيوية، ونوع من الرياضة الروحية لإخلاص العبادة وتوحيد الله، إضافةً إلى ما في ذلك من أثر طيب على الأهل والأطفال، في التعود على الخشونة والصعاب، بدل الترف والخنوع الشائع في أسلوب تربية الأبناء، لاسيما بين أهل الدنيا ومن لا يؤمن بالقيم والأخلاق الكريمة التي يبشّر بها الاسلام في تعاليمه المنيرة. وهكذا تظهر الحكمة والعناية الإلهية ولو بعد حين وبعد انجلاء المحن، فعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم. قال النبي الكريم ﷺ: اخشوشنوا فان الترف يزيل النِعَمْ.

بعد انتهاء شهر رمضان في مطلع آذار، وبعد أن يئسنا من فرج قريب، كما أشيع قبل عيد الفطر، دعوت الله في صلاة الفجر ونحن قانتون في صلاة الجماعة أن يفرحنا بشيءٍ من عنده بعدما تقطعت بنا الأسباب، وطلبت من الله سبحانه البشارة التي تشعرنا بالأمان والأمل، ثم نمت متراصاً مع رفاقي، فكانت رؤيا من أجمل وأصدق ما رأيت في حياتي، فقد رأيت نفسي أسير نحو المسجد النبوي الشريف في بنائه القديم. وهو بشكل بناء مستطيل ليس له سياج يعزله عما حوله. وكان مبنياً من الطين والطابوق والجص، وكان يحرسه الصحابي الجليل جعفر بن أبي طالب ﷺ بلباسه الأبيض وعمامته السوداء، متوشحاً سيفه العربي الإسلامي. فسلمت عليه

بتحية الاسلام ورد علي السلام، وسألته أن أدخل المسجد للصــلاة، وكان الباب مغلقاً فقال: لا تســتطيع الــدخول للمســجد الآن، لأن رسول الله ﷺ قد جمع أصحابه في المسجد، وهــو يخطــط معهــم للمعركة القادمة، وقد أمر أن لا يدخل عليه أحد. ثم رأيت بعد ذلــك في مقطع آخر، أني أركب فرساً مع ثلاثة من الصــحابة بلباســهم الأبيض أيضاً، وكانوا فرساناً يحملون السيوف والتــروس، وكنــا نخوض بخيلنا في البحر، ونتقدم لاحتلال موطئ مهــم حــدده لنــا رسول الله ﷺ، فجاء رجال من أعدائنا وهاجمونــا، فقــتلهم أحــد الصحابة، ثم جاء آخر يريد قتلي، فنجوت بحركة وانحناء من فوق فرسي، ثم قتله أحد الصحابة الثلاث الذين كنت برفقتهم، ثم وصلنا المكان الذي حدده لنا الرسول الكــريم ﷺ. وانتهــت هــذه الرؤيــا المباركة تلك النهاية الطيبة، وقد استبشرت بها خيراً، وفرح رفاقي بها كثيراً، وصلينا صلاة شكر على تلك المنة والرؤيا الصالحة. وقد أوحت لنا تلك الرؤيا الصادقة بأن معركتنا، رغم بساطتها ولكنهــا معركة عادلة، يقودها الرسول الكريم ﷺ بنفسه، ضد الظلم والفساد والغدر والطغيان، الذي أردانا في هذا المكان السحيق وأبعدنا عــن أهلنا وأحبابنا وحياتنا ورسالتنا التي يريدها الله لنا. ومن البــديهي فان معركــة يقودها الرسول العظيم ﷺ لن يُهزم أصــحابها، ولــن تعجز في تحقيق ما يريد الله سبحانه. وقد عشت الأشهر التي تلــت تلك الرؤيا أكثر رفاقي تفاؤلاً بفرج الله ونصره المبين. ولم تمــض

أيام بعد هذه الرؤيا حتى فتح الله لنا باب الرحمة، بتوسعة في المكان وفي الرزق ومواجهة الأهل والأصحاب، وانتهاء مرحلة الجوع والمرض التي امتدت أكثر من خمسة أشهر بلياليها، كما مرّ معنا تفاصيلها وصورها الأليمة.

ربما يشعر القارئ الكريم بأني أبالغ في موضوع الرؤى والأحلام، والاعتماد عليها في ترقّب ما يجري في الحياة. والحقيقة أن الرؤى والأحلام تعتبر جزءً أساسياً من حياة السجن، كما رأينا في ظلال سورة يوسف، والرؤيا الصالحة كما يقول المصطفى ﷺ هي جزءٌ من سبعين جزء من وحي السماء، وإرهاصاً لما يحدث في المستقبل القريب. فرؤيا الملك وتفسير سيدنا يوسف عليه السلام لها كانت جزءً من المشيئة الالهية لإبلاغ المصريين في زمن النبي يوسف عليه السلام دون غيرهم، عن حدوث القحط والمجاعة للسنين السبع العجاف القادمة، لكي ينفذ مشيئته وقدره في يوسف وفي أهله وقومه. وكذا في رؤية النبي محمد ﷺ ودخوله المسجد الحرام وفتح مكة في سورة الفتح. وكذلك الرؤيا التي أمر الله سبحانه فيها نبيه إبراهيم عليه السلام بذبح ابنه إسماعيل عليه السلام وغيرها من الرؤى المباركة الواردة في القرآن الكريم والسنة النبوية. وهي أيضاً تعبير جميل عن اللطف والكرم الإلهي للعبد، وهو يمرّ بمحن وفتن قد لا يقوى على الصمود أمامها، للحفاظ على إيمانه بدون مدد من

السماء، وبدون العناية والرحمة الالهية التي تنور له طريق الحياة والايمان.

من صور العذاب:

هنالك ألوان عديدة من صور التعذيب النفسي والجسدي، التي كان يمارسها رجال الأمن على السجناء. ومن هذه الصور المتكررة للتعذيب الجسدي ما تبدأ بالضرب وتتدرج حتى تصل الى الموت تحت التعذيب. فتبتدأ تلك المشاهد من الضرب الشديد بالأيدي والأرجل والسياط وأعمدة الخشب، وهو ما يسمى في التراث الشعبي العراقي (بالفلقة). وطريقة التعذيب بالفلقة في المعتقل مشهورة، وهي أن تشدّ الأيدي والأرجل، ويعلّق الشخص بحبل غليظ ويتدلى منه ورأسه متّجه نحو الأسفل، وكأنه مشدود على أرجوحة بالمقلوب. ويضرب بالعصي والهراوات على رجليه حتى تتورّم. أما استخدام الكهرباء في التعذيب فهي أيضاً من الصور المعروفة، حيث يتم ربط كيبل الكهرباء بجهد ٢٢٠ فولت على أصابع الأيدي والأرجل، وعلى (الذكر) أحياناً، ثم يتم تغذية الكيبل مرات متقطعة، وحسب ما يأمر به ضابط التحقيق. ويقال أن لها قرصة مؤلمة وصعق شديد، تؤدي أحياناً الى فقدان الوعي والاغماء المؤقت. وأخيراً من الوسائل الأخرى التي شهدتها في المعتقل، وسيلة التعذيب بالتعليق في السقف أو على المروحة

السقفية، ويكون التعليق من الأرجل أو من الأيدي ومن الخلف، مما يؤدي في كثير من الأحيان إلى خلع الكتفين وربما الشلل أحياناً أخرى، وغالباً ما تستخدم هذه الطريقة مع الذين لديهم توصية خاصة من أصحاب القرار من رجال الأمن، بضرورة استخدام القسوة المبرحة في تعذيبهم. وتستخدم هذه الطرق المتشددة في التعذيب أيضاً مع المعتقلين المعاندين أو الخطرين كما يسمونهم أو لانتزاع معلومة تحقيقية منهم أو تثبيت تهمة بحقهم وأن كانت كذباً وزوراً. وهي وسائل شائعة في معظم سجون الأمن السرية في بلدان العالم الثالث، لاسيما العالم العربي.

إن هذه الصور الوحشية وألوان العذاب الكثيرة، هي جزء أساسي من حياة السجون السرية، وهناك صور أبشع لم نتطرق إليها، لأننا لم نراها وإنما سمعنا عنها. وهي لقسوتها وهولها تذكرنا بعذاب القبر وحياة البرزخ بعد الموت، مما دعاني لتسمية حياتنا في المعتقل بهذا الاسم المعبر عن الحالة التي كنا نعيشها، تماماً كما تذكرنا نار الدنيا بنار الآخرة وعذاب جهنم.

ومن صور العذاب النفسي للسجناء أيضاً، سياسة التجويع المتعمد- كما ذكرنا - وقد كنا طيلة فصل الشتاء لا نتناول في العشاء غير نصف صمونة صغيرة مغمسة في الملح الأسمر الخشن، الذي استطعنا توفيره والحصول عليه من خزانات أجهزة التبريد القديمة (المبرّدات) بطريقة سرية، حيث هربه لنا بعض

الحرس، ممن كان في قلبه بقية رحمة، وكان الماء يسهّل عملية بلع اللقمة المملحة، وكان البعض يسمي ذلك الطعام وجبة الزهاد. وكنا أحياناً نستبدل الملح بالتمر، فقد كان يوزع علينا بمعدل بضع تمرات أسبوعياً، وهو من نوع الزهدي الرديء الذي يستخدم عادةً كعلف للحيوانات، ولكنه كان في ظلمتنا يمثل بديلاً جيداً حين يوضع مع الصمون، وأحياناً يضعه بعضنا تحت الوسادة ويأكله صباحاً، فتمتزج التمرة مع الصمونة لتكوّن نوعاً من المعجنات الشعبية (الكليجة أو المعمول) وكنا نسميها (كليجة السجن).

أما الحساء (الشوربة) فقد كان يصلنا منها بمقدار قدح (كوب) لكل شخص يومياً. وهي عبارة عن حساء الرز، وغالباً ما تكون شوربة بدون ملح (ماصخة) ونسبة الماء فيها عاليةً جداً، بحيث لا نكاد نشعر بحبات الرز، وقد يضاف إليها الماء بعد الطبخ عندما تكون الحصة أقل من المعتاد، وغالباً ما تكون بدون ملح، وكذا المرق الذي كان يخلو أيضاً من معجون الطماطة أو الدهن، وهو ليس إلا نتف من الخضر، ليس من السهل العثور عليها في سائل المرق، غير أن الشيء المفيد الوحيد في الحساء والمرق هو أنها تصلنا ساخنة، فتدفئ معدتنا وتنعش قلوبنا التي تكاد تتوقف من شدة البرد، لاسيما في أيام الشتاء القارص. وإذا أضفنا الى وجبتنا هذه، كوب الرز الذي يصلنا كل يومين – وهو أيضاً يفتقر إلى الدهن والملح – ، يكون طعامنا في جوهره لا يسمن ولا يغني من

جوع، غير أنه يبقينا أحياءً كما يقول المثل العراقي الدارج: (قوت من لا يموت)، فهو قوت يمنع الموت فحسب، ولكنه مع ذلك لم يمنع الموت لبعض من هدهم الجوع وأصابهم الهزال والضعف العام، فمن يضعف يسقط ويكون فريسة المرض أو الموت في النهاية.

أما الشاي فكان يوزع بمعدل مرة كل أسبوعين، والكوب الواحد يشترك فيه خمسة أشخاص، ويدور عليهم كأنه نوع من الحشيش في أقبية ومقاهي الحشاشين القديمة.

ينقسم السجناء في القاعة إلى مجاميع خماسية لتأمين توزيع الطعام، وكذلك لترتيب طريقة النوم ليلاً وتنظيم الواجبات. وقد كان النقل من القاعة إلى مكان آخر من أشد الأمور وأثقلها على النفس. وهذه الطريقة المزعجة تسبب للمعتقل شعوراً سلبياً بعدم الأمان والاستقرار في المعتقل، وهو معرض في أية لحظة - بالليل أو النهار - لتغيير مكانه الذي اعتاد عليه وتكيف معه، فيأتي الضابط أو المفوض المخول بنقل من يراه من المعتقلين، دون مراعاة لصداقة أو مرض أو جانب انساني. ورغم الظروف الصعبة في القاعة، فإن النقل إلى مكان آخر كان أشدّ صعوبة وإزعاجاً، ليس لتغير الظرف فحسب، وإنما أيضاً لصعوبة التكيف مع المكان الجديد ومع مجموعة جديدة.

ومن الصور الأخرى في هذا العالم السفلي، أن ضابط الموقف غالباً ما يكون شخصية مستبدة حادة المزاج، وذو صلاحية مطلقة في التصرّف واتخاذ الاجراءات التي يريدها، كثيراً ما كان يفرض علينا الجو الذي يلائم مزاجه في تلك الليلة، فإذا كان متوتراً ساد التوتر الزنزانة في تلك الليلة، وإذا كان مرتاحاً أراح السجناء من شره!. ولكن مع ذلك كان أحدنا يستطيع أن يضمن الحد الأدنى من الأمان والابتعاد عن الضرر والعقوبة، بعدم تجاوز اللوائح والتعليمات والأعراف الخاصة بالسجن، التي تعرفنا عليها مع مضي الوقت، كالمشاجرة ورفع الصوت والفتن وتنافس المصالح وغيرها..

ومن مشاكل المعتقل التي ظهرت بعد المواجهات وتوفر الطعام، صعوبة الخزن وضيق المكان المتاح لحفظ الطعام. وكنا نقوم بتجفيف الخبز والصمون ثم أكله يابساً بعد فترة، وكذا تحويل التمر إلى نوع من (الحلاوة) بمزجه بالراشي أو الدهن، وتحويل الخيار والخضار إلى مخللات (الطرشي). وغير ذلك من النشاطات التي كنا نمارسها في سلسلة أعمال من أجل البقاء في عالمنا الصغير.

ومن صور الزنزانة المألوفة تباين الشخصيات والقضايا، فقد كان معنا في المعتقل الأردني والفلسطيني والمصري والسوداني.. وهناك الصغير والكبير، والمريض والصحيح، وقد دخلوا الزنزانة لأسباب عديدة تبدأ من الاشتباه بأمره وتجاوز الحدود، ومروراً بالبيع غير المرخص للقى الآثار أو الأدوية والمستلزمات الطبية

وغيرها من المخالفات المتنوعة، وصولاً الى ضحايا الكلمة الحـــرة ونقد النظام الاستبدادي الفردي والقضايا السياسية العديدة، كالنشاط الديني والحزبي المحظور. وكانت هذه الجموع تمتزج فـــي الأكـــل والنوم والحوار والمعاناة فتشكل عجينـــة غيـــر متجانســـة أشـــبه بفسيفساء جميلة في بحر الحياة المظلمة، فيها الكثير من الصـــور الغريبة والطريفة وربما الحزينة أحياناً، كما تشكل طليعة المراقبين على قاعات المعتقل في الغالب، مجموعة من أصـــحاب المصـــالح والنفعيين ليشكلوا حاجزاً بين السجناء والحرس، ويكونوا وكـــلاء لهم أحياناً من أجل الامتيازات التي يحصـــلون عليهـــا فـــي الأكـــل والنوم، وتسهيل الاتصال بالبيت ومتابعة القضايا وأخبار الســـجناء ومصيرهم، وتتداخل المصالح على حساب الســـجناء ومتطلبـــاتهم، فكانت الرسائل والطعام والأدوية في الغالب لا تدخل الى القاعة، إلا بعد استقطاع عمولة للحرس وعمولة للمراقـــب قبـــل المواجهـــات وبعدها.

ورغم قساوة المعتقل وشدّة اللوائح والتعليمات التي يسير عليهـــا، إلا أن اختراقه كان ممكناً جداً، بسبب تفشـــي الرشـــاوى والفســـاد الاداري بين أفراده، فيمكنك – مثلاً – الحصـــول علـــى مـــا تريـــد والوصول إلى الهدف الذي تبغي، مقابل مبلغ من المـــال، غيـــر أن المبالغ والأسعار التي تعرض كانت عالية جداً، فلا يستطيع دفعهـــا إلا المعتقلين الأغنياء حقاً. وقد اضطررت إلى دفع مبلغ من المـــال

مرات قليلة للحصول على الدواء والطعام وإرسال الأخبار الضرورية للأهل.

ومن صور المعتقل البارزة أيضاً تفشي العنصرية والطائفية بين بعض السجناء، فكان للتكتل على تلك الأسس، أثر سلبي على العلاقات الاجتماعية الطيبة بين السجناء، إذ أن تلك النزاعات من الأمراض الخطيرة والمزمنة في السجون، إضافة إلى مبدأ المصالح المتبادلة، والاختلاف والضعف في صدق النوايا، ولكن بجهود بعض الطيبين استطعنا تحجيم تلك الأمراض الاجتماعية التقليدية.

أما كادر السجن من الحرس والضباط فان معظمهم كان أصحاب الضمائر الفاسدة ومن اللصوص ومصاصي دماء السجناء. وكانوا غالباً ما يتعاملون بقلوب قاسية أو قل ميتة ليس فيها رحمة ولا نور، إذ لا يمكنك أن تأمنهم على شيءٍ إلا قليلاً منهم بطبيعة الحال. وهم يتآمرون ويسرقون تموين السجناء والموقوفين يومياً وبشكل علني، رغم معرفتهم بحالة الجوع الرهيب التي يعيشها هؤلاء، ويسرقون الدواء مع علمهم بالوضع الصحي الذي كنا نعيشه، وحين يكلفون بإيصال طعام أو دواء من أهالي الموقوفين مقابل ثمن يسرقون ثلاثة أرباعه، وأحياناً يأخذون الثمن منّا دون إيصال شيء، متحججين كذباً بأنهم لم يستطيعوا العثور على بيت أهل السجين، وغير ذلك من ألاعيب الشيطان، التي يبتكرونها لابتزاز السجين ومضاعفة معاناته. ومع ذلك تجد كلامهم معسولاً ودياً في

الظاهر، ولكن حين يكلف أحدهم بالقيام بمهمـــة تعـذيب ســجين، يتحول فجأة إلى وحش كاسر، وكأنه آلة تعذيب بيد من يأمره، فـــلا حول ولا قوة إلا بالله. وكان من بـــين المعتقلـــين مرضـــى القلـــب والضغط والسكر والقرحة والبواسير والصرع وغيرها كثير...

ومن المناسب في ختام هذه الفقرة الثقيلـــة بقصصـــها وصـــورها، والتي حاولنا فيها استعراض واستذكار بعض القصص المأســـاوية وصور العذاب التي عشناها وسمعناها مـــن الســـجناء، أن نختـــار قطعة أدبية ساخرة معبرة عن حال المعتقل في الســـجون الســـرية لأجهزة الأمن في دول الشرق، ونعيش مع الشاعر العراقي أحمـــد مطر، وهو يصور جانباً من هذه الحياة البائسة، بأسلوبه الســـاخر في مقطع شعري طريف من إحدى قصائده الجميلة.. في حواريـــة ساخرة بين لسان حال مراقب للحدث وبين حمار مســـكين تعـــرض للاعتقال دون ذنب، من قبل أجهزة الأمن والمباحث السرية التـــي تنفذ ارادة السلطان الجائر المستبد، فكان هذا الحـــوار معـــه بعـــد الافراج عنه:

حين أتى الحمارُ من مباحث السلطان

كان يسير مائلاً كخط ماجلان

فالرأسُ في إنكلترا.. والبطنُ في تنـــزانيا.. والذيل في اليابان!

– خيراً (أبا أتان)؟

– أتقتدونني؟

- نعم! مالك كالسكران؟
- لا شيء بالمرّة.. يبدو إنني نعثان..
- هل كان للنعاس أن يهدم الأسنان؟! أو يعقد اللسان؟ قل عذبوك..
- مطلقاً.. كل الذي يقال عن قثوتهم.. بهتان
- بشّرك الرحمن، لكننا في قلق.. قد دخل الحصان منذ أشهرٍ ولم يزل هناك حتى الآن.. ماذا سيجري أو جرى له هناك يا تُرى؟
- لم يجرِ شيءٌ أبداً.. كونوا على اطمئنان،

فأولاً: يُثتقبل الداخل بالأحضان!

وثانياً: يُثأل عن تهمته بمنتهى الحنان!

وثالثاً: أنا هو الحِثان!!!..

وهكذا تتبدل الصور والأشكال والألوان داخل المعتقلات، وبعد مدة من المكوث فيها والتعرض لصور العذاب التقليدية فيها، كالقلق والجوع والمرض والقذارة الاجبارية والكثرة الحاشدة في الأماكن الضيقة والمظلمة. عند ذلك يكبر عمره فجأة، وتصرف سني عمره صرف الدرهم بالدينار، فيزيد عمره عشر سنين في سنة واحدة، ويخسّ وزنه بسرعة وبشكل غريب. وقد يصل المعتقل الى نصف وزنه خلال أشهر قليلة، ويتغير لونه وصورته وتتهدم أسنانه وتتراجع صحته الى مستوى خطير، خلال فترة قصيرة، قياساً بالأحداث وعاديات الزمن التي قد تصيبه وهو خارج المعتقل. وما

أكثر الأمراض المزمنة التي تظهر علاماتها داخل السجن أو بعد الخروج منه بمدة معينة لمعظم المعتقلين في دهاليز الأمن. وهي صورة تتطابق تماماً مع ما ذكره أحمد مطر في قصيدته، من تحول الحصان الى حمار، وتغيّر نطقه وكلامه وحركته ونشاطه، بجسمه الذي بات هزيلاً واهناً مما رأى من صور العذاب وسوء المعاملة، فيصاب المعتقل غالباً بفوبيا الرعب والخوف من ذكر المباحث السرية أو اتهامهم وتخوينهم في المعاملة داخل المعتقل. وكان كلام الحصان المتهالك بعد تهدّم أسنانه، من جراء عمليات التعذيب والقهر والذل التي عاشها، خير معبّر عن عذابه الطويل، وهو في ضيافة مباحث السلطان ونظامه المستبد.

تكنولوجيا الزنزانة:

تختلف التكنولوجيا في المعتقل الذي نحن فيه عن تكنوجيا السجون التقليدية، حيث الانقطاع التام عن العالم، وعدم توفر أية مستلزمات لتوفير ما يحتاجه الإنسان في حياته اليومية. إن أول ما ظهر من الصناعات البسيطة التي كنا نقوم بها في الزنزانة هي، صناعة السبح، التي كانت تبدو ضرورية لنا في المعتقل، حيث كانت تعيننا على الصبر وذكر الله. وقد كنا نصنعها من خيوط الصوف أو من قماش ذي عقد على شكل سبحة، ثم تطورت وأصبحت تصنع من نوى التمر، حيث تثقب نوى التمر بعد جمعه من تمر الحصة من وسطه، ثم يدخل خيط فيها ويتم عقد النواة الأولى، ثم تدخل بقية النواة (٣٣ نواة)، ثم يربط بها مجموعة من الخيوط المعقودة (كركوشة) لتمثل شاهول السبحة. ثم تطورت بعد المواجهات، وأصبحت تصنع من نوى الزيتون البيضوي والمكور، على شكل سبحة اعتيادية. تكون أجمل من سبحة نوى التمر، التي تشبه العصيات المربوطة بخيط السبحة. وسبحة نوى الزيتون كانت ناجحة ولا تختلف عما في السوق سوى في اللون والصبغ والتلميع الصناعي أو الطبيعي. وقد احتفظت بواحدة من هذه السبح وهي موجودة عندي لحد الآن، وقد علقتها داخل سيارتي لتذكرني

بتلك الظروف الصعبة، وكيف عشـــنا أيامهـــا وكيـــف تجاوزناهـــا وخرجنا منها بسلام[٤١].

وقد نجح بعض المعتقلين في صناعة الشطرنج والدومينو. فقد تـــم عمل رقعة الشطرنج في البداية، وكنا نستخدم بعض حبوب الأدوية والنوى للدلالة على قطع الشطرنج، ثم تطورت بعدها، فـــتم رســـم القطع الشطرنجية على ورق كارتون صغيرة مستطيلة توضع على المربع الخاص بها، واستخدم نوعين من الكارتون ليمثـــل نـــوعي القطع الأبيض والأسود. وكذلك استخدمت نفس التقنية البسيطة في صناعة الدومينو، وحتى ما يسمى ورق القمار. وقد نجحت الفكرة في استخدام تلك الأدوات والمعدات البسيطة للتسلية وقضاء الوقت. ولقد كان للشطرنج الأثر الأبرز والاهتمام الأكبر في قضاء أوقـــات مهمة وممتعة في التنافس على المرتبـــة الأولـــى فـــي مســـابقة الشطرنج. وكان من أبرز الأشخاص المبدعين الذين تميّزوا في تلك الأعمال، شاباً مصرياً له قدرات ومواهـــب واســـهامات مميـــزة[٤٢].

---

[٤١] لقد بقيت محتفظاً بتلك السبحة الفريدة لحد صيف سنة ١٩٩٩م، حيث فقدتها في احدى سفرياتي خارج بغداد.

[٤٢] كان اسمه سعد، وكان شخصاً ذكياً غامضاً، فبالرغم من أنه كان معنا في الأشهر الثلاثة الأخيرة، إلا أنني كنت أجهل قضيته وسبب دخوله المعتقل معنا ولم يطلعنا عن خلفيته وأصله وفصله. وقد كان غير مكترث للسجن وكان نشيطاً ومبادراً ودائب الحركة. وقد حدثت بعض المشاكل بينه وبين السجناء بسبب طبعه الخشن وكلامه الفضّ وقسوته

وكان ذا قدرة خاصة على الرسم واختراع الأفكار التي كنا بحاجة إليها.

لقد ظهرت بعد المواجهات وتوفر الطعام، مشكلة فنية تحتاج الى البحث عن حل، تلك هي مشكلة الخزن وتنظيم الحاجات والملابس في القاعات التي عشنا فيها، وبهذا العدد الكبير، لاسيما القاعة الثانية التي سميناها فيما بعد (قاعة التابوت). لقد تم تطوير أسلوب وضع الأكياس التي تضم خزين حاجات عالمنا الشخصية وبعض المواد التي تصلنا من الأهل تحت الرأس، بدل الوسادة الخاصة بالنوم التي حرمنا منها منذ لحظة الاعتقال، حيث تم تطوير هذه الآلية المؤقتة الى آلية أكثر تطوراً، وذلك بوضعها فوق الرأس بعد تعليقها في الحائط، حيث كانت تربط هذه الأكياس بحبل يربط بالشباك الصغير. وكانت هذه الفكرة العملية من اختراع أحد الشيوخ، فقد ربط حبلاً في الشباك ثم ربط الكيس به وجعله معلقاً فوق رأسه، ثم قام بتقليده بقية السجناء، وذلك لسهولة هذه الطريقة وكفاءتها، حيث يمكن ربط عدة أكياس بحبل واحد. وحين كثر الطعام وازدادت المواد المخزونة، بدأت الأكياس تسقط على رؤوسنا ليلاً ونحن نيام، بسبب الثقل المتعاظم الذي يصل الى حد لا تستطيع الحبال تحمله. وقد كانت الحبال محلية الطنع (أي يتم

ومرائه وعدم التفريط بحقه. ومع ذلك فقد كانت تربطني به علاقة حسنة، يحكمها الاحترام والاحتواء المتبادل.

تصنيعها داخل المعتقل). وكانت تصنع من خيوط الأغطية التالفة (البطانيات) ومن الملابس الممزقة، بطريقة الفتل التقليدية. بعدها تمّ تطوير هذا الحبل المحلي الصنع، وذلك لحاجتنا إلى جعله أكثر تحملاً، فكان يبرم باليد على طريقة الغزل القديمة، ثم يجمع حبلين أو أكثر وتبرم سوية. وقد كنا نصنع حبالاً يمكنها أن تتحمل سحب سيارة. ولما أصبح المكان لا يتسع لوضع الأكياس تحت الشبابيك الثلاثة الصغيرة الموجودة في الغرفة، تمّ تطوير هذه التكنولوجيا إلى طريقة أكثر فائدة وكفاءة، وذلك بربط حبل متين بين كل شباكين ثم تربط الأكياس به، حيث أصبح الجدار الذي يحتوي على الشبابيك مليء بالأكياس التي تحتوي على الأكل والملابس. ولما كان عدد الأكياس كبير جداً ولا يتسع المكان لها، ظهرت الحاجة مجدداً إلى أماكن خزن أخرى، واضطررنا إلى التفكير في استغلال الجانب الثاني من القاعة، الذي لا يحتوي على شبابيك، وتم اختراع فكرة للتعليق، إذ كان يتم حفر ثقب مائل في الحائط – يميل قليلاً إلى الأسفل – كما يتم فتح مجرى للحبل من الثقب وإلى الأسفل أيضاً. ويتم حشر عقدة الحبل في الثقب ويثبت الحبل في المجرى إلى الأسفل ثم تعلق الأكياس في الحبل. وقد ابتكر هذه التكنولوجيا اللطيفة أحد المعتقلين الكهربائيين، تقليداً لفكرة تثبيت كيبل الكهرباء على الجدران الكونكريتية، وذلك بثقب الحائط بالمثقب، ثم وضع قطعة من البلاستك ، ويسمى هندسياً طريقة

التثبيت بـــ (الـــجُوِي)، لتساعد على حشر حامل الكيبل في الجدار. وكان لهذه الأفكار فوائد عملية كبيرة. وكان عمل الثقب يـــتم فـــي الزنزانة باستخدام ما ممكن توفيره من القطع المعدنيـــة كالملعقـــة البسيطة وكذلك باليد إن لم نجد شيئاً، وحسب صلابة الجدار المراد ثقبه، إذ كان لا يسمح بإدخال إي نوع من العـــدد والأدوات التـــي نحتاجها، للمعتقل الا خلسة وعن طريق التهريب.

وهناك أفكار أخرى بسيطة كانت تساعد على إنجاز بعض الأعمـــال كاستخدام الدبوس بدل الإبرة في الخياطة والدرز، لإصلاح ملابسنا المتهالكة أو خصفها وترقيعها وتصغيرها عندما يغزونـــا الضـــعف والهزال.. وغيرها من النشاطات التي كانت تعيننا من أجل البقاء.

نور الأمل وظلمة الزنزانة:

في هذا اليوم ٢٦/ ٥/ ١٩٩٥ وفي الساعة العاشرة مساءً، تم الانتهاء من كتابة مسودة ما سبق من هذه المذكرات والخواطر والأحداث التي شهدتها هنا. والآن أحاول أن أستجمع ما في مخيلتي لمواصلة الكتابة حتى نهاية المذكرات بإذن الله.

الجو في هذه القاعة التي أطلقنا عليها اسم (قاعة التابوت)، حار جداً ودرجة الحرارة عالية جداً، ونحن نستقبل سموم الصيف، في مكان يخلو من أية خدمات بسيطة لاستمرار الحياة ومواجهة الظروف الاستثنائية في المعتقل. وفي مقدمة ذلك بعد الحر والعرق الغزير، تأتي أزمة انقطاع الماء المزمنة، ما دمنا في المعتقل. إذ لا يتوفر ماء الآن للغسل أو الوضوء.. والقاعة تضم حالياً (٥٥) خمسة وخمسين شخصاً، أي بمعدل (٣) أشخاص لكل متر مربع، وهي كثافة عددية عالية جداً، يتفاقم أثرها مع ارتفاع درجة حرارة القاعة، مما يجعل الكتابة والتوثيق والوصف عموماً من أصعب ما يكون في مثل هذه الظروف. ولقد تغير مراقب القاعة، الذي كنا قد اعتدنا عليه في القاعة المظلمة. وهو الآن شخص مقرّب من الحرس والسجانين، ولا تربطنا به صلة أو صداقة كالمراقب السابق، يساعده شخص آخر اسمه مجدي، وكان مجدي رجلاً نشيطاً وكان مهتماً بالنظافة والصحة العامة. أما المراقب الأول فقد

تركناه مجبرين في الغرفة المظلمة، لأنه لم ينقل معنا إلـــى قاعــة التابوت، وكان يساعده زميلنا صلاح، وقد أجاد جميع هــؤلاء فـــي خدمة أقرانهم من المعتقلين، وان كان الأخ زيد - المراقــب الأول الذي عشنا معه أشهر الاعتقال الأولى - قد فاق الجميع فـــي إدارة شؤوننا، لاسيما في فترة اشتداد حالة الجوع والمرض في الأشهر الأولى. نسأله تعالى أن يوفقنا في مشروع الكتابة، مستعينين فـــي اتمامه بنوع من الكتمان، امتثالاً للحديث النبوي الشريف القائــل: استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان. ونسأل الله أن نكــون قــد استطعنا نقل جزء مهم مما جرى ويجري في حياة البــرزخ التـــي نعيشها، ونسأله أن يعجل بالفرج لي ولرفاقي.. وأن تكــون هــذه المحنة ذات نفع وخير لنا في الدنيا والآخرة إنه لما يشــاء قــدير، وهو السميع المجيب.

رحلة العذاب:

لم نستطع الإطلاع عن كثب على أحوال المعتقلين المجاورين لنـــا خلال الأشهر السابقة رغم وجودهم معنا في الموقف، وذلك لكوننا معزولين عن بعضنا في قاعات محاجر خاصة، وهي الأماكن التـــي عشنا فيها خلال فصل الشتاء وجزءً من فصل الصيف الحالي. ومع ذلك التقارب المكاني، إذ لم يكن يفصلنا عن بعضنا ســوى أمتــار معدودة، الا أن التواصل أو الاتصال والاحتكاك بالآخرين لــم يكــن متاحاً بمن جاورنا في المحاجر والغرف القريبــة منــا، كالقاعــة المظلمة وقاعة التــابوت، ولا يمكننـــا التواصـــل أو الاتصـــال أو الاحتكاك بالآخرين ممن يجاورنا في المحـــاجر الأخــرى والغــرف القريبة منا. ولكن مع الزمن تم اختراق تلك العزلة والفصـــل بـــين المعتقلين، وحدث ذلك التواصل والتداخل تحديداً بعد أن تمّ إبلاغنا، بأنه سيتم نقلنا إلى معتقل آخر، وهو معتقل سري أيضاً، مخصص للسياسيين أيضاً. ومنذ تلك اللحظة بدأت تظهر فـــي حياتنـــا فـــي البرزخ رحلة جديدة بصورها وأحداثها يمكن أن نســميها (رحلـــة العذاب). وقد استمرت تلك الرحلة شهراً كاملاً، ابتـــداءً مـــن يـــوم الخميس ٢٩ مايس حتى نهاية شهر حزيــران لســنة ١٩٩٥م. . وكان سبب نقلنا الى المكان الجديد، هو إجراء بعض الترميمات في

بناية المعتقل الأول. وتم نقلنا إلى المعتقل الجديد[٤٣] بسـيارة نقـل ركاب تسع نصف عددنا، ومع ذلك فقد وصلنا المكان الجديد بسلام وبشيء من السعادة والارتياح، حيث استطعنا أن نـرى شـوارع المدينة (بغداد) وأهلها الذين كانوا يتحركون فيها بحرية،، وكـأنهم مخلوقات من عالم آخر لا يمت بصلة بعالمنا المظلم. ورأينا كـذلك الأبنية والحدائق العامة والمحلات والمساكن، وهي مناظر كنا قـد حرمنا منها لأشهر طويلة، وكأننا نراها لأول مـرّة، أو بـالأحرى كأنها مفردات وصور اختفت من الذاكرة الآنية، التي كنا نفكّر بهـا ونستخدمها في المعتقل.

تم تفتيشنا بدقة بعد وصولنا المعتقل الجديد ، للتأكد من عدم وجود أشياء ممنوعة لدينا. وتم مصادرة جميع الأدوية وجزء كبير مـن الطعام الذي كان بحوزتنا، التي معنا وجميـع الرسـائل والأوراق وكذلك مصادرة كل شيء زجاجي أو حديدي كان معنا.. وبعدها فتح

---

[٤٣] يقع هذا المعتقل السري قرب جامعة بغداد في منطقة الجادرية، وكان قريباً جداً من نهر دجلة. وكان عبارة عن بيوت كبيرة. يبدو أنها كانت مملوكة لمواطنين عراقيين، ثمّ تم مصادرتها أو حجزها من قبل الدولة لسبب ما، واستخدمت كدوائر أمنية ومعتقلات. وقد كنا نتوقع أن الجو سيكون فيها أبرد وأفضل من معتقل وسط بغداد لقربها من نهر دجلة، ولكن ذلك كان ينطبق على البيوت (المكيّفة والجميلة)، أما غرف الاعتقال والسجون السرية تلك فلا، لأنها كانت عبارة عن محاجر وسراديب تقع تحت الأرض، ونحتاج الى النزول عدّة أمتار عبر بضع درجات في سلم القبو، حتى نصل إلى مكان الاعتقال المعد خصيصاً لأمثالنا.

لنا باب المعتقل ودخلنا الزنزانة التي كان موقعها يـنخفض ثلاثـة أمتار عن سطح الشارع في ذلك المكان. لقد أصبنا بصـدمة لأول وهلة بعد دخولنا ذلك السرداب. وليتنا لـم نـدخل ذلـك المكـان السحيق!! فقد كانت مفاجأة لنا – وقد كنا نتصور أننا سنجد مكانـاً أفضل – إذ وجدنا أنفسنا في غرفة سـاخنة ورطبـة. فهـي مـع حرارتها العالية كانت مشبّعة بالرطوبة، إلى درجة أن ملابسنا قـد تبللت تماماً من التعرّق خلال بضعة دقائق، فطرحناها عن أجسادنا ولم نبقِ غير الملابس الداخلية التي تبللت من العرق أيضـاً. لقـد كانت لحظات غريبة توحي لنا بقرب نهايتنا، وكان أحدنا ينظر إلى الآخر وأعيننا تدور كالمغشي عليه من هول المفاجأة. فلقد تركنـا مكاناً شديد الحرارة ولكنه كان جافاً، فكيف سـنعيش هنـا، حيـث تضيف الرطوبة العالية إلى الحرارة طعماً قـاتلاً، وتجعـل قضـاء الوقت في المعتقل، أمراً يصعب تحمله وتمرّ علينا أيامـاً يصـعب تذكرها، فتترك في الذاكرة رواسب ثقيلة لا نحب تذكّرها.. ولكنـه على كل حال قدرٌ يتوجب علينا أن نواجهه ونؤمن به ونصبر على ألمه.

وهكذا قُدّر لنا أن نرى أقصى رطوبة مع أقصى حرارة للجـو فـي غرفة نتنة مظلمة، لا يمكـن أن تصـلح لتربيـة أي نـوع مـن الحيوانات، ولكن الله يعطي للإنسان القدرة على التكيّف لمواجهـة الظروف الصعبة، وإلا كيف عاش هؤلاء المعتقلون الذين وجدناهم

في المعتقل قبلنا لمدة تزيد على السنة. لــم تكــن قضــايا هــؤلاء المعتقلين خطرة[٤٤]، غير أن أحكامهم التي حكموا بها أثناء وجودنا معهم، كانت أحكاماً شديدة في معظمها، كالحكم بالإعدام والســجن المؤبد، وكان أقل الأحكام عشر سنين. وقد كانــت هــذه الأحكــام مرعبة ومزعجة بالنسبة لنا، لأن تلك الصور والأحكام قد تطال أي واحد منا، بسبب تداخل الملفات والقضايا السياسية والأمنية بــين الصغيرة والكبيرة، وحسب مكان الاعتقال والأجهزة المتحكمة فيه..

---

[٤٤] كان معظم هؤلاء المعتقلين من التيارات والأحزاب الاسلامية المعارضة للنظام، كحزب الدعوة وغيره، أو –على الأقل– كانت هذه هي التهم الموجّهة لهم، أذكر منهم شاباً طيباً كان نحيفاً جداً اسمه علي، وهو الذي ذكر لي بعض تفاصيل العالم السفلي الذي كان يعيشه مع بقية رفاقه، إذ مضى على اعتقاله بضع سنين دون أن يعلم أهله بمكان اعتقاله.

الحياة بين برزخين:

اصطلحنا على تسمية المعتقل السابق باسم معتقل (التـــابوت)، لأن قاعته الكبيرة كانت تشبه التابوت، فهي على شكل مســـتطيل أحـــد عرضيه أصغر من الآخر. ولقد كان مكان الاعتقـــال مكـــوّن مـــن طابقين: طابق أرضي، ويتكون من عشرة محاجر صغيرة منفصلة، وطابق علوي مكوّن من قاعتين، قاعـــة صـــغيرة وكنّـــا نســـميها بـــ(القاعة المظلمة)، ومتوسطة وهي التي على شكل تابوت، وبين القاعتين خمسة محاجر منفصلة، أما مساحة بناء المعتقل فكانت لا تزيد عن ٨٠ متراً مربعاً، يقطنه ما معدّله ٢٠٠ معتقل. يزيد هـــذا العدد وينقص بمعدل ١٠% فقط، موزعين بين القاعتين والمحاجر الخمسة عشر في الطابقين. ويعاني سكنة القاعتين من مناخ حـــاد وقاري صيفاً وشتاءً، لكونها تقع في الطابق العلوي، ولعدم وجـــود أجهزة تكييف حقيقية، إضافة إلى صعوبة توفّر الماء خلال النهـــار وجزءً من الليل. أما المعتقل الذي نحن فيه الآن، فقد أطلقنا عليـــه اسم (المقبرة) وذلك لكونه يشبه صندوق مقفل لا يدخله الهواء إلا من باب واحدة هي باب السجن الرئيسية، ومكوّن من أربعة غرف صغيرة، إضافة إلى عشرة محاجر منفصلة مبنية على جهة واحدة، غرفة بجوار غرفة، وهي الجهة اليسرى مـــن الممـــرّ المحـــاذي للغرف. وينتهي بناء المستطيل بالحمام والمرافق الصـــحية، التـــي

تكون مفتوحة على الغرف عبر الممر الوحيد في الموقــف، ممــا يجعل الجو مشبّعاً بالرطوبة دائماً، إذ أن المـــاء متـــوفر هنـــا ولا ينقطع طوال اليوم لسوء الحظ!!. أما الإضاءة الطبيعية فتكاد تنعدم ويصعب تمييز الليل من النهـــار، لـــولا متابعتنـــا لأوقـــات الأذان والصلواة الخمسة. أما مساحته فلا تزيد عن ١٠٠ متـــراً مربعـــاً ويقطنه عادةً أكثر من ١٠٠ معتقل.

لقد كان التعرض للشمس من الأمور التي تحتاجها أجسامنا. ومـــع ذلك فان أوامر السجن تسمح لنا بالخروج من المعتقـــل للتعـــرض للشمس مرة واحدة شهرياً، ولمدة نصف ساعة فقط فـــي معتقـــل التابوت. أما هنا فرغم أن الإضاءة أسوء مما كانت فـــي المكـــان السابق وتكاد تنعدم، فليس هناك أية فكرة لدى إدارة المعتقل، لمـــا كنّا نسميه توفير خدمة التعرض للشمس. لكن دخول فصل الصيف في شهر حزيران مع، ربما جعل حاجة الجسم إلى الشمس أقل، كما أن توفّر الماء كان قد قضى على الكثير من الأمراض، حيـــث كنّـــا نستحم في اليوم ثلاث مرات على الأقل، كما إن وقـــت الاســـتحمام كان غير محدد. وبعد أسبوعين من مكوثنا في المقبرة، تم تشـــغيل مبردة هواء وضعت أمام باب السجن الحديدية الوحيـــدة، فتحسّـــن الجو داخل السجن ولكن في نفس الوقت ازدادت رطوبتـــه.. ومـــع مرور الأيام وبـــدء عمليـــة التعـــارف والتـــداخل مـــع الســـجناء الموجودين، بدأ التكيف مع الظرف والمكان وأصبحنا أكثـــر قـــدرة

للتأقلم، مما جعلنا ننشغل بأمور الحياة التقليدية في المعتقل، كعملية نقل التكنولوجيا والخبرة ممن هم أقدم منّا في السجن، إذ كانوا قد سبقونا في الكثير من الأعمال اليدوية. ويبدو أن تكنولوجيا هذا المعتقل كانت أكثر تطوّراً مما كنّا عليه، نظراً لقدمهم وخبرتهم التي انتقلت إليهم من سجناء آخرين ساكنوهم خلال الفترة السابقة. فقد رأينا هنا سجناء يصنعون الأحذية والسلال وليف الغسل بطريقة البرم والغزل والحياكة. وكان مما ينتج هنا صنع فراش النوم والحافظات وأعمال أخرى تعتمد كلها على مبدأ الحياكة. ويقوم السجناء باستخراج الخيوط من الملابس القديمة وإعادة غزلها وحياكتها. ويستخدم نوى الزيتون هنا بشكل أفضل في صناعة السبح، وقد اشتريت بعض هذه المنتجات بحفنة من التمر المتوفر لدي، لأن السجناء هنا لا يزال الجوع يعتصر أمعاءهم لحرمانهم من فرصة المواجهة الدورية للأهل. ومن غرائب هذا المعتقل، أنك تستطيع أن تستأجر من تريد من السجناء ليعمل تحت إمرتك أياماً عديدة، مقابل أن تعطيه شيئاً من الطعام، وكان التمر هو العملة الرئيسية للتداول في ذلك المعتقل. وقد كنّا نحاول معالجة الجوع المزمن، بأن نوزّع جزءاً من طعامنا دون مقابل، ولكن دون فائدة لأن الجوع المزمن يولّد الحاجة إلى شبع طويل الأمد، لا نستطيع أن نغطيه بامكاناتنا المحدودة.

اخترنا الغرفة الوسطى لكي تضم معظم رفاقنا في الموقــف الأول، حيث كنا عشرين شخصاً، أما باقي رفاقنا فقد تفرقوا علـــى بـــاقي الغرف.

أن تأثير الرطوبة أخذ يتناقص مع الأيـــام وتكيّفنـــا مـــع الحـــرارة المرتفعة، ونحن نعلم أن نار جهنم أشد حراً، وتلك من رحمـــة الله بنا، غير أن همّاً آخر كان يؤرقنا وكنا نعاني منه في هذا المعتقل، وهو غلق أبواب الغرف علينا منذ وقت مبكر في الليل، حيث كانت الأبواب تغلق من الساعة التاسعة مساءً حتى التاسعة صباحاً. ولما كان الحمام والمرافق خارج الغرف، فمن الطبيعي أننا لا نســتطيع أن نبقى بدون تبول على الأقل خلال هذه الفترة الطويلة، فكـــان لا بد من التبول في الغرفة نفسها وفي علب مخصصة لـــذلك، ممـــا يجعل رائحة الغرف لا تطاق، فضلاً عن مشكلة الرطوبـــة العاليـــة. وكانت طريقة التبول هذه مصـــدراً للمشـــاكل والإزعاجـــات بـــين السجناء. فأول ما ظهر من المشاكل التي كانت تحـــزّ فـــي قلـــوب المعتقلين، مشكلة الاقتناع بالفكرة، ثم مشكلة تـــوفير العلـــب، ثـــم بعدها أثيرت مشكلة أخرى حول المكان الذي توضع فيـــه العلبـــة؟ وقرب من تكون؟ وهل تكون من جهة الرأس أم من جهة الأرجل؟ وغيرها من المشاكل التي تثير الجدال والعراك أحياناً، وقد اســـتقر الرأي أخيراً أن لكل فرد أو فردين علبة خاصة بهما.. وبالنسبة لي فقد حاولت عدم استخدام نظام العلب، والمصابرة حتـــى الصـــباح

وفتح الباب والذهاب إلى الحمام، ولكني لم أقاوم أكثر من ثلاثة أيام واستسلمت لنظام التبول المركزي. أما الكثافة العددية في موقف المقبرة فقد كانت أقل منها في الغرفة المظلمة أو التابوت، حيث يسكن ٢٠ معتقلاً في غرفة مساحتها ١٠ متراً مربعاً، أي بمعدل شخصين لكل متر مربع، مما أتاح لنا النوم على الظهر والسمر في جلسات ليلية جميلة وحزينة، والقيام ببعض النشاطات الأخرى في حفظ وصناعة الغذاء لاسيما عمل المخللات (الطرشي)، وقد برع الأخ علي بهذه الأعمال أكثر من الآخرين.

التعرف على مقابر الأحياء:

من الحقائق المحزنة التي لمسناها في المعتقل في تلك الأيام، هي أننا كنا نعيش فعلاً في مقابر جماعية، ولكنها كانت للأحياء بدل الأموات. وقد كان الفرق بسيطاً بين حالة برزخ الموت وبرزخ المعتقل. وربما كان الفرق في التسمية فقط، وفي استمرار النفس ودقات القلب المتهالكة للمعتقلين، والأكل البسيط الذي كان لا يغني ولا يسمن من جوع. لقد كانت تدبّ فينا الحياة البدائية المنسية، لتميزنا عن الأموات وعالمهم الخاص بهم في حياة البرزخ المعروفة، التي تلي الحياة الدنيا وانتهاء الأجل لكل انسان. ولكنها في الوقت نفسه تشبه حياة الأموات في الكثير من الصفات والصور والأشكال، التي نعرفها عن عالم الأموات. لقد كنا نعيش ونصطف في مجاميع من الناس، كأننا قطعان من المخلوقات الهزيلة المعزولة عن العالم، في محجر أو قاعة صغيرة أو حفرة مظلمة، لا تكاد تجد فيها أدنى المستلزمات والخدمات الانسانية أو ما يحتاجه الانسان المكرّم في اللوائح والشرائع والقوانين، لكي تستمر حياته بصورة طبيعية، دون أن يهاجمه الحرّ اللاهب أو البرد القارص أو المرض العضال أو غير ذلك، مما يواجهه الانسان في حياة الغاب أو في الصحراء الملتهبة، وليس الانسان المعاصر وهو يحث الخطى لتوديع القرن العشرين، والانطلاق نحو قرن جديد.

وفي المأثور عن تراث الأنبياء، يروى أن نبـــي الله يوســـف ﷺ حين خرج من السجن قال عنه: السجن مقبـــرة الأحيـــاء، وذروة البلاء، واختبار الأصدقاء[45]. ويؤكد القرآن الكريم تلـــك المعـــاني، حيث يعتبر السجن أعلى مراحل الابتلاء مخاطباً النبي الكريم محمد ﷺ في سورة الأنفال فيقول: ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك، ويمكرون ويمكر الله، والله خير الماكرين﴾[46]. وهكذا يكـــون الابتلاء بالإثبات- أي السجن- أقسى وأصعب من القتل أو النفـــي. وكان ذلك فعلاً هو الشعور السائد والاحساس المخيّم على حياتنـــا طوال مدة الاعتقال، ونحن نعـــيش أيـــام هـــذا الابـــتلاء ولياليـــه، وخصوصاً سجون الأمن ومعتقلاتهم في تلك الفترة من عهد النظام وأجهزته المتسلّطة على الرقاب.

يبدو أن أسلوب الأمن والسياق الذي يعملون به، فيما يخص مـــدة التوقيف حسب التهمة الموجهـــة للمعتقـــل، مـــن خـــلال خبرتنـــا واحتكاكنا ببقية المعتقلين، هو أسلوب تقليدي وشائع بين السجناء وسجّانيهم على السواء. فبالنسبة للموقوف الذي ليس له قضـــية، يمكن أن يبقى فترة لا تقل عن شهر ولا تزيد عن ثلاثة أشهر، وقد تصل المدة إلى ستة أشهر إذا ما صـــاحبها تحقيـــق بســـيط. أمـــا

---

[45] انظر تفسير ابن كثير لسورة يوسف.

[46] سورة الأنفال/٣٠.

الموقوف على ذمة قضية جنائية، فيمكن أن يبقى لفترة لا تقل عن ستة أشهر، ولا تزيد عن سنة ثم يبُت في أمره ويحال إلى المحكمة.. أما بالنسبة للسياسي الاعتيادي أو الموقوف لدى الأجهزة الأمنية، فيمكن أن يبقى موقوفاً في السجون الخاصة لفترة سنة أو سنتين. أما المتهم بقضية تمس أمن الدولة بشكل مباشر في دول العالم الثالث، فيسجن غالباً لفترة لا تقل عن ثلاث سنوات، وقد تصل إلى خمس سنوات، وأحيانا إلى عشر سنوات، قبل أن تحال قضيته إلى المحاكم الخاصة. وتلك الفترات التي ذكرناها أعلاه سواء القصيرة منها أو الطويلة، تتنافى بطبيعة الحال مع أبسط قواعد ومبادئ حقوق الإنسان. لأن المتهم في كل دول العالم المتحضر يُحال إلى المحاكم فور الانتهاء من التحقيق معه، أو يطلق سراحه بكفالة مالية إذا ما تأخرت محاكمته، أما مدة التوقيف على ذمة التحقيق فلا تتجاوز في العادة أياماً معدودة، إلا في دول الشرق المتخلفة[٤٧] فمدة التوقيف تكون عادة غير محدودة، وموعد المحكمة يأتي بعد مدة طويلة تصل إلى عدة أشهر وأحياناً الى عدة سنوات، يرزح المعتقل خلالها في دهاليز السجون والمعتقلات

---

[٤٧] لقد تكرر في هذه المذكرات استخدام عبارة دول الشرق أو العالم الثالث، دون الإشارة إلى العراق مباشرة، حذراً من وقوع هذه المذكرات في أيدي وكلاء الأجهزة الأمنية.

السرية لدى الأجهزة الأمنية، وما أكثرها في دول العــالم الثالــث عموماً وفي العالم العربي تحديداً.

فهل سيأتي على بلادنا يوماً تنبذ فيــه تلــك الســياقات الجــائرة، وتحترم كرامة الإنسان، لتعطيه وتوفر لــه الحصــانة والحقــوق الطبيعية، التي تعطى للانسان المعتقل في معظــم بلــدان العــالم، لاسيما العالم المتحضر في الغرب؟ نسأله تعــالى أن يعجّــل بــذلك اليوم ويرفع الظلم عن الإنسان في الشرق العربي، الذي كان فــي العصور الغابرة مهداً للحضارات والأديان وحقوق الإنسان، لاسيما حضارة القرآن العظيمة، التي نشرت نورهــا علــى الأرض لمــدة طويلة تزيد على الألف سنة، منذ عصر الرســالة وحتــى عــودة الظلام لعالمنا العربي الاسلامي قبل بضعة قرون.

يمضي الوقت هنا في موقف المقبرة كما في موقف التابوت بــبطء شديد، فلحظاته وساعاته تمر عبر الــذهن والقلــب والــروح، ولا تتركها حتى تترك أثراً وذكرى وحرقة ذات نكهــة خاصــة، تكــاد تتذكرها في كل وقت وحين. وتدور الأيام والليالي هنا ثقيلة حتــى كأنها سنوات عجاف قاسية، والإنسان هنا ينتظر أمراً وأملاً بعيــداً كأنه سراب.

تقترب الساعة الآن من الرابعة فجراً، وأنا أكتب تلك السطور قرب باب الغرفة الحديدي المغلق، وأحاول مستعيناً بأنفي ورأسي حــين يتعذّر على باقي الأعضاء أن تقوم بالحركــة والتجــوال، أن أشــمّ

نسمة من هواء الممر، ومن خلال قضبان الباب، دون أن أرتـــوي أو ترتاح نفسي وروحي المتعطشة للحرية والنور والهواء العليل. كنت مرتدياً ملابسي الداخلية وهي مبللة بعرق ينساب من جسدي، بضغط من الرطوبة والحر اللاهب، عــرق ووســـخ وعفونـــة ذات رائحة خاصة، تتناغم مع رائحة الغرفة التي تزكم الأنوف. وتتواجد قربي علبة البول الخاصة، وكأنها جزء أساسي من حياتي البائسة الجديدة (!) ومن عالمي السفلي الذي صــنعه الظلــم والاســتبداد. وخلفي بقية أقراني وكانوا في تلك الساعة الكئيبــة كلهــم نيــام. يستيقظ بعضهم أحياناً لقضاء الحاجة – للتبول- ثم ينام. وســوف يستيقظ الجميع بعد قليل استعداداً لصلاة الفجــر جماعــة، حيــث نتوضأ داخل الغرفة، لأن الخروج في هذا الوقت كــان يعــد مــن الممنوعات والمحظورات. يستطيع كل واحد منا أن يحوز في تلــك الساعة على كأس واحدة من الماء. وأنا أشعر الآن فــي أعمــاقي بنوع من السكينة والقرب من الله سبحانه، وكأنها حالة من اليقين والتجلّي الرباني، وكلي ثقة بالله ولطفه، أن تنتهــي هــذه الأيــام الصعبة، وتحين ساعة الفرج، ولو بعد حين من الــزمن المنســي هنا. وسنكون بإذن الله خارج هذه الأسوار والزنازين المعــدّة لنــا ولعذابنا المستمر. وان ذلك سيكون حتماً في اللحظة التي يقــدّرها الله والأجل الذي يشاؤه، وان رحمة الله وفرجه سيكون حتماً أقرب مما نتصوّر باذن الله تعالى.

الحياة في المحجر:

لم تكن حياتنا في المحجر بأفضل حال مما كان في المقبرة أو التابوت، ولكن ربما كان بعض الشرِّ أهون كما يقال. فبعد عودتنا من معتقل المقبرة السري الذي طال مكوثنا فيه قرابة شهر، أودعنا ثانية في معتقل التابوت، الذي عشنا فيه ردحاً من الزمن القاسي فيما سبقَ، بعد أن تم اكمال ترميمه وتأهيله من جديد. ولقد كان استقرارنا في قاعة التابوت الرئيسية أمراً مؤقتاً. وهي المحطة الثانية بعد أن مكثنا في القاعة المظلمة في الأشهر الأولى، خلال فترة الجوع والمرض التي دامت خمسة أشهر بأيامها ولياليها. وقد كانت قاعة التابوت بعد عملية الترميم تعجّ بما يقرب من ستين موقوفاً، على مساحة محدودة لا تزيد على (٢٥) متراً مربعاً. وقد أصبحت الآن أسوأ حالاً مما كانت عليه قبل الترميم، حيث لا هواء ولا ماء فعلاً، ونحن نواجه لهيب الصيف العراقي اللاهب الشديد الوطئة. فكان السجناء والمعتقلون بمختلف أعمارهم ولياقاتهم المتهالكة، بداخل القاعة، يواجهون حالة من الاختناق المتزايد والصعوبة الشديدة في التنفس، بسبب حالة الجفاف التي تئن تحت وطأتها الحالة الصحية لأجسادنا الهزيلة. وتضيف حرارة الهواء المنزوع من أي أثر للرطوبة ولو بحدها الأدنى تعاسة أخرى، ليتفاعل بشكل سلبي مع الهواء الفاسد، الذي ينبعث من صدور

السجناء من جرّاء التنفس. لقد جاء هذا المشهد، الـذي تصـبغه حرارة الهواء الجاف الخالي من الرطوبة، كما تصـبغ البهـارات الهندية الحارة الطعام الهندي، لمن لم يذقه ولم يجربه في حياتـه السابقة، جاء ذلك المشهد التراجيدي بعد معاناة شهر من التشـبّع بالرطوبة والحرّ الشديد في المقبرة. وكأن هؤلاء القوم أرادوا لنـا الانتقال بين حالات العذاب من أقصاها الى أقصاها، وهم ينعمـون بطبيعة الحال بالهواء المكيف والطعام الفاخر والماء المثلّج، فـي قصورهم وعالمهم الذي صنعوه على أنقاض حياة الناس الكريمة، وبظلمهم وكبت حرياتهم، والهيمنة على أرزاقهم ومقدراتهم، مـن خلال حكم الاستبداد وتكميم الأفواه، حتى تحوّل الشرق كلـه الـى سجن كبير، يضم ملايين البشر المغلوبين على أمـرهم، والتـي لا حول لهم ولا قوة. لم تمضِ على وجودنا في التـابوت الا بضـعة أيام، حتى أتيحت لنا فرصة مناسبة، للانتقال إلى المحجـر وهـو مكان أفضل قليلاً، لنقضي فيه فترة الصيف المتبقية. وهكذا تم نقل بعضنا إلى المحاجر المجاورة للقاعة. وهو اجراء اعتيادي لتخفيف الزحام في القاعة. لقد كانت مساحة المحجر الواحد ثلاثـة أمتـار مربعة (١,٥×٢) م. ولقد كان المحجر أخـفّ وطـئً علينـا مـن القاعة، وتتوفر فيه إمكانيةً أوسع للتكيّـف وتلافـي آثـار الحـرّ والجفاف والزحام، رغم الضيق المكاني والبشري الذي يمتاز بـه، لصغر مساحته المتناهية وكثرة العدد، الذي يفترض أن يعيش فيـه

من النزلاء. لقد كان عددنا سبعة أشخاص، نعيش في هذا المكـــان الضيق. ومن رحمة الله علينا أننا كنـــا متقـــاربين فـــي الســـلوك والطباع، مما سهّل علينا أن نصبر على البلاء المحيط بنا من كـــل ناحية، وأن نقضي وقتاً فيه الكثير من الفوائد والطمأنينة والترويح النفسي.

ولقد كان لمفرغة الهواء الصغيرة أثر كبير في تلطيف الجو هنـــا، حيث كانت تسبّب حدوث تيار هواء ونسيم عذب في أغلب الأوقات، من خلال فتحة مربعة ذات أبعاد (٣٠×٣٠) سم في باب المحجـــر الحديدي، وكان بعض رفاقنا في المحجر قد ابتكـــر وضـــع ورقـــة مقوّى (كارتونة) قرب الفتحة لتغيير اتجاه الهـــواء الـــداخل نحـــو الأسفل، لتعمل تيار هواء، يشبه الى حدٍ ما تيار المروحة الســـقفية في عالمنا الآخر. وقد كانت تلك الفكرة المبتكرة علـــى بســـاطتها، ذات فائدة مباشرةً، مما ساعدنا على النوم ولو لساعات قليلة خلال الليل.

لقد كانت الحياة في المحجر أكثر هدوءً واستقراراً من الحياة التـــي عشناها في الأشهر الستة الماضية. وكان الوقت يمضـــي بســـرعة أكبر مما كان، في العمل المكوكي الدؤوب لتهيئة الخدمات وتـــوفير الماء، من خلال نقله بالحاويات والعلب والقناني المتـــوفرة، مـــن القاعات والمحاجر الأخرى إلى الداخل، وخزنه مؤقتاً فـــي أوانـــي الأكل لاستخدامه في الغسل والشرب والتنظيف. غيـــر إن الضـــجر

والضيق في المحجر، كان يتسرب ويتسلل إلى النفـوس والقلـوب أسرع من القاعة، بسبب صعوبة الحركة وقلة العدد، مقارنـةً مـع الكثرة الكاثرة في القاعة. لقد كنا لا ننام في المحجر طوال ساعات الليل حتى صلاة الفجر، بسبب موقف الماء وشـحّته وانقطاعـه، حيث إنه ينقطع أثناء الليل والنهار، ولا يصل إلا ساعة أو ساعتين في آخر الليل (بحدود الساعة الثالثة ليلاً)، فنبدأ عملية الاغتسـال وترطيب أجسامنا قبل الفجر، ثم يليها مباشرة عملية التخزين لباقي اليوم. إن عملية توفير الخزين الكافي من الماء لاسـتخدامه فـي النهار، من أهم الواجبات الضرورية التي تجعلنا نطمئن على حياتنا واننا نستطيع البقاء والاستمرار ليوم آخر في المعتقل. وإن موعد النوم يكون غالباً من الخامسة فجراً إلى العاشرة صـباحاً، حيـث تكون درجة الحرارة أقل ما تكون خلال هذه الفتـرة مـن اليـوم. ويمكن تقديرها تقديراً حسياً داخل السجن، فربما تكـون مـا بـين (٣٥-٤٠) درجة، وفي النهار ترتفع إلـى (٤٥) درجـة مئويـة، وربما تكون أكثر من ذلك في هذا الشـهر (شـهر تمـوز). وقـد يستطيع البعض منّا النوم بين الظهر والعصر أيضاً، إذا ما تمكّـن من التغلّب على تأثير الحر على فعاليات جسمه ونشاطه التقليـدي. لقد كنا نجزّئ الوقت في المحجر بين العمـل والقـراءة والصـلاة والدروس، وأحياناً لعب الشطرنج، الذي تـم صـنعه محليـاً فـي المحجر. ومن الظواهر الطريفة والمفيدة الأخـرى فـي المحجـر

ظاهرة (البريد السري)، حيث يتم نقل الكثير من الحاجات بين المحاجر والقاعات بواسطة البريد السري، إذ كنا نقوم بمناقلة بعض الأطعمة والمواد والأدوات والعدد البسيطة، التي قد تزيد من حاجة فئة معينة الى فئة أخرى، ومن مكان الى مكان آخر.

وغالباً ما يبدأ البريد بعد الواحدة ليلاً، حيث يتم نقل الحاجات بمأمن من أعين الحراس والسجناء، لأن تلك النشاطات من المحرّمات والممنوعات التي يعاقب عليها من يضبط متلبساً بعملها. ولا يستبعد أن يتلاعب بعض السجناء من ضعاف النفوس في مواد البريد، اذا ما كان ضمن مجموعة أخرى تعاني من نقص ما، فتجد حاجتها في ذلك الطرد البريدي، الذي قد يكون طعاماً مغرياً، كالبرتقال أو الرقي أو اللحم والرز وغيرها، والتي قد تصل بعضنا دون الأخرين. إن الاتصال بين المحاجر يتم بواسطة الضرب باليد المقبوضة على الحائط المشترك. ولقد كنا نسمي هذا النوع من الاتصال بالاتصال بواسطة الهاتف (التلفون)، حيث يتم التداول بين المتحاورين من خلال فتحة باب القاعة أو المحجر، وبعد التنسيق مع هيئة المراقبين وبعض الحرس المتعاطفين معنا.

لقد كان هذا النوع من الاتصال بطريقة الطرق أو الضرب على الحائط يذكرنا بقصة (الكونت مونت كرستو) التي كانت من تأليف الكاتب الفرنسي فكتور هيكو كما أظن، أو غيره من مشاهير كتّاب القرون الوسطى في أوربا. وكان بطل تلك القصة قد وضع في

سجن رهيب مظلم، وكان يسمع صوت ضربات متناغمة ذات ايقاع محدد، من احدى جدران المعتقل السري الذي سجن فيه سجناً مؤبداً. فكان يرد عليها بضربات مقابلة وبنفس النغمة والايقاع، ثم بدأ يحفر بيديه الأعزلتين، وبما متوفر له من عصي وامكانيات متواضعة، ولسنين عديدة، متتبعاً مصدر الصوت، حتى تمكن من الوصول إلى مكان مرادفه، وهو السجين الآخر المسجون في قاعة أخرى لا صلة لها بمكان اعتقاله، الا من خلال الاستفادة من الصوت المتبادل الذي كان ينبعث من الجهتين. ثم استطاع أن يرسم خطة مشتركة للهرب والنجاة من ذلك البرزخ المظلم. غير اننا هنا لا نستطيع حتى التفكير بالهرب، لأن ذلك سيعقّد قضيتنا ويضيف الى التهم الموجهة لنا تهمة أخرى لا يرتجى الخلاص منها، في ظل النظام الفردي الاستبدادي، الذي لا يسمح بأي تحدي أو مواجهة لإجراءاته التعسفية والقمعية، التي لمسناها في المعتقلات التي رأيناها خلال رحلتنا العجيبة هذه. إضافة الى تلك الأسباب العامة والوجيهة، فان خوفنا لم يكن مقتصراً على أنفسنا فحسب، وانما كان الخوف الأكبر أن ينعكس ذلك التصرف على عوائلنا وأقاربنا، كما هو معتاد في التعامل مع الهارب أو من يحاول الهرب من المعتقلين في معظم دول الشرق المستبدة والمتخلفة، فغالباً ما يؤخذ الأهل والعشيرة بجريرة فعل أحد أبنائها، فليس في عرف النظم المستبدة، ذلك المفهوم الأخلاقي القرآني،

الذي تجسده آيات عديدة في القرآن الكريم، كقوله تعـالى: ولا تزر وازرةٌ وزر أخرى. وقوله: كل امريءٍ بما كسب رهين.

من الحقائق الغريبة الأخرى في حياة المحجر، أن بـاب المحجـر مغلق بشكل دائم، ولا يفتح مطلقاً، ولا يمكن لأحدنا الخروج او فتح الباب الحديدي الغليض عادةً لأيام طويلة أو ربما أسابيع وأشـهر. ولا تحدث تلك المعجزة في عالمنا المعزول عن الانس والجـن، إلا لسبب قاهر وضروري، كالطلب للتحقيق أو في حالـة الإفـراج أو لنقل المعتقل الذي يسكن المحجر الى مكان آخر، أو غير ذلك مـن الضروريات التي تخص ادارة السجن فحسب. وربما يكون السـبب الوجيه الذي يفضّله السجان ويدعوه لفتح باب المحجر، هو لتنفيـذ عقوبة التعزير بحق أحد المعتقلين أو بعضهم، لأي سبب كان، كما في حالات التمرّد وبعض التجاوزات والمشاجرات والخلافات، التـي قد تحدث بين النـزلاء في المحاجر، كما هو الحال فـي القاعـات الأخرى أيضاً.

لقد كان الطعام يصل إلى المحجر عن طريق فتحة الباب اليتيمة، ثم نقوم بتوزيعه وتقسيمه داخل المحجر. ولقد أصبح من المعتاد فـي عالمنا السفلي في المحجر، لاسيما في أيام الصيف الحاليـة التـي تمرّ علينا، أن نعيش نصف عراة بعد خلع ملابسنا التقليدية، عـدا الملابس الداخلية طبعاً أو اللباس الساتر للعورة فقط. وهذا الأمـر

لابد منه ويشترك فيه الجميع، سواء في المحجر أم القاعة، لتلافي تأثير الحرارة العالية والتعرّق الغزير الذي يتصبب من أجسادنا.
ومن الطريف والمحزن في آن واحد، أن مبردة الهواء اليتيمة التي لم تزود بمضخة الماء منذ أن نصبت، قد احترق محركها أيضاً بعد اتمام عملية الترميم مباشرةً، مما زاد الوضع سوءً في قاعة التابوت، وتسبب في ارتفاع درجة الحرارة في المعتقل بدرجة أكبر، مما جعل وضعنا في المحجر أفضل قليلاً من القاعة وبقية الأماكن في المعتقل. نتوقع أن يكون وجودنا في المحجر حالياً، يمثل المحطة الأخيرة قبل الفرج أو الانتقال إلى السجن التقليدي في أبي غريب، حيث بدأت خلال هذا الشهر المحاكمات القانونية، والتي غالباً ما تكون شكلية، وذات أحكام مسبقة، يقوم القاضي فيها عادة بطرح أسئلة قصيرة وتقليدية على المتهم، ثم يصدر الحكم الجاهز المعد سلفاً، وحسب نوع القضية وما يقابلها من أحكام، مثل قضايا القذف للنظام ورأسه أو قضايا الاتهام بالانتماء للأحزاب الدينية او الأحزاب الأخرى المعارضة والمحظورة في عرف الحزب الحاكم أو التخطيط والتآمر على نظام الحكم، وغيرها من التهم التي كانت شائعة في ظل النظام الحاكم وقتئذٍ. لقد بدأت قضايانا وملفاتنا تروّج وتتحرك بشكل سريع وجاد في هذه الأيام. عسى أن يستجيب الله سبحانه لدعواتنا ودعوات الطيبين في المعتقل وخارجه، وعسى أن

تقترب ساعة الفرج القريب والخروج من هذا البرزخ الذي ننتظره وكأنه حلم وسراب يراودنا منذ أشهر طويلة.

لقد استمرت إرهاصات هذا الحال والأمل لمدة أسبوعين فقط، حيث تم الحكم على بعض الموقوفين معنا، وتـم نقلهـم إلـى السـجن المركزي في أبي غريب، أذكر منهم الأخ أسامة والأخ حسين، حيث حكم أسامة سنتين وأفرج عن حسين، وكاد الأمر أن يصلنا وتبـدأ محاكمتنا، لولا حادثة مقتل أحد القضاة المكلفين بمحاكمتنا بطريقة غامضة، والتي حدثت قبل محاكمتي أنا شخصياً بأيام قليلـة، ممـا أدى إلى توقف القضايا ثانية.

ومن سوء حظنا أن حدثت زيادة غريبة في عـدد المعتقلـين فـي الموقف الذي نحن فيه، في مطلع شهر تموز الـذي نحـن فيـه، ونتيجة هذه الزيادة بدأ عدد النزلاء في المحـاجر والقاعـات فـي الازدياد، حيث وصل عدد نزلاء المحاجر إلـى (١١) أحـد عشـر شخصاً في المحجر الواحد، الذي لا يتسع عـادة لأكثـر مـن (٤) أشخاص، مما جعل الزحام في المحجر لا يطاق، وجعل البقاء فـي المحجر أمراً لا يمكن احتماله، لدرجة أن (النوم المتلاصق) أمسـى متعذراً، مما اضطرنا إلى اعتماد نظام الوجبات أثناء النوم. ولكننـا استطعنا -بفضل الله- التخلص من هذا المأزق الحقيقي بسـرعة، حيث تم نقلنا بفضل الله ونعمته، من المحجر إلى قاعة (التـابوت)

ثانيةً. وتم اشغال محجرنا من قبل سـجناء آخـرين، اذ لا يخلـو المعتقل على مدار السنة من الزبائن المجانيين.

صور ومواقف في برزخ العالم الثالث:

لم تكن حياتنا في البرزخ – كما قد يظن القـاريء – كلهـا مـآس وأحزان وضروب من الجوع والمرض فحسب، وانما كانـت هنـاك صور أخرى فيها نفحات كريمة وجميلة، وفيهـا الأمـل والتفـاؤل والطمأنينة، كانت تتخلل حياتنا البسيطة الضـيّقة، وفيهـا الشـيء الكثير من المنن والرحمات والالطاف، التي كنا نلمس أثرها ودورها الكبير في حياتنا البائسة. فهناك صور الإقبال الجمـاعي علـى الله سبحانه والتألق الروحي، الذي كان خير الزاد لمواصـلة الطريـق ومواجهة الصعاب التي تعترض حياتنـا. وكانـت ظـاهرة كثـرة المهتدين الذين شرح الله صدرهم للإيمان والصلاة الخاشعة والصبر على البلاء، من البشائر الطيبة التي كانـت تعـزز ثقتنـا بأنفسـنا وبدورنا في الحياة، رغم مرارة السجن والقيد الذي يحاصرنا. وكان ذلك الأثر الطيب في المعتقل مما يفرح القلب ويجعل كل فـرد منـا يشعر بالرضا من خلال الاحساس بدوره المؤثر فـي تلـك الحيـاة البسيطة. أن حياة العزلة والتفرغ والانقطاع عن الناس والحياة في المعتقل، تعطي للنفس فرصة مناسبة لاستعراض الأخطاء السـابقة في الحياة، ودراسة علل النفس الكثيرة والشـروع فـي محاولـة معالجتها. لقد كان البعض منا يحاول رسم خطة أو مسـار أفضـل لحياته مستقبلاً، كما أن استشعار يد الله اللطيفة الرحيمة المحيطـة

بعالمنا، كانت تعطي لحياة البرزخ المظلمة نوراً بهياً ونكهة مشرقة، على الرغم من المرارة التي كنـا نتجرعهـا يوميـاً علـى أيـدي السجانين بشتى الصنوف والأشكال. وهكذا قدّر الله لنا أن نستشـعر مدده ولطفه الخفي لعباده، حين يحيط بهم الضيق والكـرب وحـين يداهمهم الخطر، أي نوع من الخطر الذي يهـدد الحيـاة الكريمـة للانسان المكلف بخلافة الأرض. تماماً كما جاء في العديد من الآيات الكريمة في القرآن. لقد وجدنا أنه من يستطيع أن يعيش هنـا فـي ظل الله سبحانه، سيجد حتماً بركة ذلك المدد الرباني، ومن يسـخط ويقنط من رحمة الله، لا يرى إلا الظلام والقهر واليـأس، وتصـبح حياته جحيماً. ووجدنا أيضاً أن التفرغ في المعتقل يمكن أن يتحـول الى نوع من الصيام عن مغريات الحياة الدنيا، وهو غنى من نـوع خاص، عن كل ما كان يشغلنا عن أنفسنا وعن التأمل العميـق فـي رحابها والاستغراق في بحر الحياة والمجتمع الواسع، فهو يعطيـك فرصة للتأمل والقرب من الله إن أحببت، وكذلك يمكنك بكل يُسر أن تحيا في ظلال القرآن ونعمة الإيمان صابراً على الـبلاء والعـذاب، فينقلب كل ذلك فجأةً إلى سعادة وطمأنينة ورحمـة. كمـا إن روح العمل الجماعي البسيط، وحياة الكفاف والكفايـة والتكافـل تربـي النفس على مباديء ومُثُل ما كنا نلتفت اليهـا سـابقاً، كفكـرة أن تعيش لغيرك وتحيى من أجل الآخرين فحسب، لتطهـرك وتصـفي روحك وقلبك من شوائب الانانية والمصلحة الذاتية والعيش للـذات

وما تطلبه من ملذات. إن الحياة المقيدة على مرارتها ومصاعبها المعروفة، تربي المرء على الصبر والمصابرة والقناعة والإصرار والثبات والمفاصلة مع الباطل والبراءة منه ومن نظمه ومؤسساته، وتجسّد الخصومة بين الحق والباطل.. بين النور والظلمة.. بين الإيمان والشيطان، كما تجسدت في المعتقل الكثير من النعم والمنن التي حبانا الله سبحانه بها، والتي فقدناها فجأة بعد وقوعنا في هذا المكان السحيق، وأصبحت ذات قيمة عظيمة في نظرتنا الجديدة للواقع من حولنا، كالحرية والصحة ومتع الحياة الأخرى.. تماما كما أكد لنا الله سبحانه في سورة قريش، بأن الجوع والخوف من الأسباب الرئيسية لتعبيد الناس لله أو أي قوة تستحوذ عليها وتحاول تعبيد الناس لها من خلال توفير الأمن والطعام. قال تعالى في سورة قريش: ﴿لإيلاف قريش، إيلافهم رحلة الشتاء والصيف، فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾[٤٨].

- **من المشاهد الشائعة واللطيفة هنا، إن الدواء مثل الطعام، كان مشاعاً للجميع وليس ملكاً لأحد، فإذا مرض أحدنا ترى الكل يبادر بعرض ما عنده من دواء، ويعطيه الدواء الذي ينفعه ويعينه في مرضه، فكانت روح التكافل والتعاون هي السائدة بين المعتقلين بغض النظر عن الدين والعرق والعشيرة.**

---

[٤٨] سورة قريش.

- ومن المشاهد الأخرى لاسيما في فترة الجوع وشحة الطعــام، إن الطعام، الذي كان مشاعاً أيضاً عند توفّره، كان يقسّم بيننا دائماً بالقرعة، وذلك لشحّته، وأثر حالة الجوع التي كانت سائدة، حتــى بعد المواجهات مع الأهل، حيث أن الطعام يصعب حفظه في ظروف المعتقل. وهو لا يصمد لأكثر من يومين لسوء الخزن والحفظ بدون وجود أدوات التبريد والتكييف.

إن الظروف الصعبة والازدحام الشديد تسبب أحيانــاً بعضــاً مــن الخلافات والشجار بين المعتقلين، لأسباب قد تكــون فــي بعــض الأحيان تافهة لا تستحق الاهتمام، وذلك لتباين النفوس والأمزجــة والثقافات.. وهذه الخلافات تكون عابرة لا تلبث أن تــزول ويعــود الوئام في المحاجر أو القاعات، فنتمالح ونتقاسم اللقمة البســيطة، ونمزح ونلعب في فترات الراحة، بعد أوقات الطعام والصلاة.

- ومن الصور المعتادة أيضاً إن لكل مجموعــة فــي المعتقــل، مراقب يخرج من بين السجناء يكون مخــولاً بالأعمــال اليوميــة ويقوم بتقديم الخدمات العامة لزملائه. وتكون له بعض الصلاحيات والامتيازات لإدارة شؤون السجناء، ويكون واجب الطاعــة ومــن أصحاب الرأي والقرار، أي أنه يمتلك السلطة للقيام بواجبــه فــي الادارة والتوجيه.

- لقد كان وضعنا لا يُحسد عليه، في القاعة المظلمــة وخــلال الأشهر الخمسة الأولى، إذ كنا نعيش في ظلام دامــس حتــى فــي

النهار، وذلك لعدم وجود إضاءة في القاعة، وكانت رائحة القاعة نتنة، وهواؤها فاسد ورطب، حيث لا يوجد فيها غير شباك وحيد وصغير فيه مفرغة هواء صغيرة، تسحب الهواء وتحجب الضوء. وكانت مساحة القاعة لا تزيد عن (١٥) متراً مربعاً يقطنها عدد غير محدد، يصل أحياناً إلى (٥٥) شخصاً، ولكن معدل العدد في الغالب كان بحدود ٤٠ معتقلاً. وهو عدد متعب ويسبب الاعياء الانقباض داخل النفس، بالاضافة الى الظلمة والرطوبة والعفونة التي كانت سائدة. ويضيف القمل الذي كان منتشراً في الملابس والفرش والأغطية، نكهةً أخرى على مشهد القاعة المظلمة، طيلة أشهر الشتاء الفريد الذي عشنا ظروفه الخاصة. لقد كانت الغرفة رغم الظلمة التي تؤطرها من جميع أطرافها، يدخلها بصيص من ضوء الشمس بعد دخول وقت العصر، حيث نتحسس الإضاءة، ويظهر على الحائط ما يشبه المصباح الأصفر القوي الإضاءة، وكان ينير الزاوية التي كانت مخصصة لمجموعتنا، مما كان يسهّل علينا قراءة القرآن بين العصر والمغرب، وهذه من اللطائف والنعم التي كنا نستبشر بها، ومن الخصوصيات القليلة لمجموعتنا داخل الغرفة.

- أما بالنسبة لليل الشتاء الذي أظلنا طيلة مرحلة القاعة المظلمة، فقد كان طويلاً مظلماً، والنوم لا يتاح لنا بسهولةٍ مع الكثافة السكانية العالية، مما يضطرنا إلى تقسيم السجناء إلى

مجاميع، على أن تقوم مجموعة منها بواجب الوقوف وعدم النـــوم وتتناوب مع بقية المجاميع بطريقة خاصة. ومن الطبيعي أن يكون النوم بأسلوب التلاصق والتداخل بين الذي قبلك والذي بعدك والذي أمامك. وغالباً ما تتداخل الأرجل وتتراكب، مما يثيـــر نوعـــاً مـــن النزاعات الليلية الساخنة أحياناً. وقـــد يضـــطر المراقـــب للتـــدخل لإخمادها، وقد تتوسع فتسبب العراك والاشتباك بالأيدي، لفئة قليلة من المشاغبين والموتورين، مما يؤدي إلى تدخل السجان وضـــرب المشاكسين.

- لقد كان النوم في قاعة التابوت أو المحجر، في أيام الصيف، أكثر سوءً من الأيام السابقة، بسبب شدة الحر والاحتكاك والتلاصق بين الأجساد المتعرقة، لاسيما في هذا الشهر (تموز). ولقـــد إزداد عدد المعتقلين في القاعة الثانيـــة (التـــابوت) ليصـــل إلـــى (٦٠) شخصاً، في مساحة لا تزيد عن (٢٥) متراً مربعاً، مما جعل كثافة العدد أكثر منها في الشتاء. ولذلك وبسبب الظروف الســـيئة فـــي قاعة (التابوت)، فقد انخفض معدل ساعات النوم إلى ســـاعتين أو ثلاث كانت بعد الفجر فقط!، كما انخفض معـــدل ســـاعات قـــراءة القرآن إلى ساعة واحدة فقط، في حين كان معدل القراءة يصل إلى (١٠) عشر ساعات أو أكثر خلال شهر رمضان (في شباط) وفـــي فصل الشتاء عموماً، مما جعل شعوراً بالأمل يسود بيننـــا، بســـبب العسر والضيق الذي أحاط عالمنا. وكان ذلـــك الشـــعور المتفائـــل

يستند الى معاني الآيات الكريمة المبثوثة في القرآن، والتـي كنـا نحفظها ونرددها مثل قوله تعـالى: ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾[49] ،وكذلك قوله: ﴿فإن مع العسر يسرا﴾[50] ، فضلاً عن الـدعاء بالتيسـير والفرج. ان ذلك يعني أن فرج الخروج من البـرزخ قـد اقتـرب تحقيقه، نظراً لشدة العسر والضيق الذي كان يـلازم حياتنـا فـي المعتقل.. ولكن بعض اليائسين كان يظن العكس، وكنا فـي ذلـك مجموعتين، مجموعة متفائلة وأخرى متشائمة.

- لقد كان الاغتسال بالماء البارد في الشتاء حالة معتادة، فـي تلك الظلمة وذلك البرزخ. ولقد كنا نتواصى بيننا بأن أفضل طريقة للاغتسال بالماء البارد، هي أن تمسح الجسم كله بالصابون وقليـل من الماء، لكي يتهيأ الجسم لاستقبال الماء البارد بشكل تـدريجي. وكانت هذه الطريقة العملية مفيدة في تحمّل برد المـاء القـارص وتوفيره لأكبر عدد منا، وقد اعتاد عليها الجميع. ولقد كان معـدل الاغتسال في الشتاء مرة واحدة أسبوعياً، أما في الصيف فقد كان لا يقل عن مرة واحدة يوميـاً وحسـب تـوفر المـاء وترتيبـات تحضيره، سواء في القاعة أم في المحاجر.

---

[49] سورة الضحى/ ٥.

[50] سورة الشرح/ ٥.

- لقد كانت الفرش والأغطية الخاصة بالنوم قليلة وغير كافية بشكل دائم. وكانت قذرة أيضاً بسبب صعوبة غسلها!. فالبطانية الواحدة مثلاً تغطي خمسة أشخاص في الغالب. وقد كانت آثار الرطوبة ومجاميع القمل تعشعش في البطانية المفروشة على الأرض للنوم عليها بدل الفراش التقليدي. ولقد كان عدم تعرّض أجسادنا لضوء الشمس سبب رئيسي لانتشار الأمراض بيننا خلال الأشهر السابقة، لاسيما الجرب والالتهابات المتنوعة، وكذلك سهولة العدوى وانتشار الأمراض الوبائية بيننا.
- إن عملية الحلاقة في السجن مسألة ضرورية، وهي في زنزانة البرزخ أكثر ضرورة لتفادي انتشار الأمراض والأوبئة بين المعتقلين، حيث أن النظافة كانت تقينا من الكثير من الأمراض، وتضفي على حياتنا شيئاً من الراحة النفسية والطمأنينة، لأننا نعلم أن (النظافة من الايمان) وهي شعار التقوى والطهارة. ولكن الحلاقة في المعتقل – كبقية الخدمات – ليست سهلة ولا متاحة دائماً، وربما استطعنا الحصول على معدات الحلاقة كل شهرين، فقد كانت تُصرف لنا عند الحصول على الإذن بالحلاقة، نصف شفرة حلاقة لكل عشرين شخص، وبعد ساعة واحدة من استلام نصف الشفرة هذه، نُطالب بإرجاعها لاستلام النصف الثاني، لتبدأ وجبة أخرى بالحلاقة.. وهكذا.

وفي تلك الظروف لم نكن نستطيع أن نحلق كل أماكن الشعر في الجسم، بل كان التركيز على حلاقة الذقن (اللحى) فقط، أما حلاقة الإبط والعانة، التي تكون عادة أكثر أهمية وخطورة من الناحية الصحية، فقد كنا نختلس الوقت لحلاقتها اختلاساً. وكنا نستغل فترات التبديل بين الشفرات القديمة والجديدة، وأحياناً استثمار العلاقات الجيدة مع المراقبين أو السجانين للقيام بتلك العمليات بشكل سريع وفوري. أما حلاقة الرأس فقد كانت تتم خارج القاعة وعلى الهواء الطلق. وكنا عادة نجلس على علبة خزن الدهن الكبيرة (تسمى التنكة) بدل الكرسي، ويقوم بحلاقتنا – في الغالب – حلاق متدرب من بين السجناء أيضاً. وكانت مدة الحلاقة المفترضة ينبغي أن لا تزيد عن الخمس دقائق للشخص الواحد.

- لقد كان المعتقلون مصنفين إلى مجاميع حسب القضايا وتواريخ اعتقالهم، وكذلك حسب الصلات التي تتولد بينهم مع الوقت. وتدعى كل مجموعة باسم رئيسها. وتكون المجموعة وحدة شبه مستقلة فيما يخصها من أعمال وواجبات، مثل: تقسيم الواجبات والالتزام باللوائح الخاصة بالمعتقل، وفي حالات الاستدعاء الرسمي للتحقيق أو الشهادة، ولأغراض توزيع الطعام أو الأدوية أو أية أمور تستجد في المعتقل. وهو تصنيف شبه رسمي يكون معتمداً أمام مراقب الغرفة، وهو الذي يكون عادة مسؤولاً بدوره، أمام الحرس وضابط السجن، عن المعتقلين

وتنظيم شؤنهم اليومية. وأذكر من بين المعتقلين الجدد الأخ طالب، وكان شاباً يافعاً يعمل في مدينة الكاظمية. وقد كان في أول دخوله مرتبكاً خائفاً ومكتئباً من شدة الازدحام في المعتقل، ثم استقر وضعه بعد مدة من دخوله المعتقل. وقد كان من الشباب الطيبين المتعاونين في خدمة الآخرين وقضاء حوائجهم. وهناك مجموعة اليرموك وأذكر منهم الأخ حسن والشيخ عبد الله، ومن المجاميع الأخرى مجموعة الأخ ناصر. وقد كان شاباً ظريفاً كثير المزاح، مما جعله يضفي على جو الغرفة شيء من البهجة والمرح. وكان من مقالبه (وقفشاته المتميزة) أنه كان كثير التحرّش والمضايقة لرجل طيب يدعى الأخ عبدو، وهو مصري الجنسية في الخمسين من العمر. وكان هذا الرجل الصبور الراضي بقدر الله، متفرغاً لأعمال الطبخ وتقديم الطعام للمعتقلين في قاعة (التابوت). وكان مستفيداً من مساعدة الأغنياء من السجناء له ولمطبخه المتواضع. وكان ناصر يحاول أحياناً أن يثير أعصاب عبدو ويجعله يتشاجر مع شاب مصري آخر خدوم وطيب أيضاً يدعى جواد، كان يعمل في غسل الملابس وتنظيم حركة السجناء، أثناء دخول الحمام والاغتسال والوضوء، لمساعدة المراقب في السيطرة على المعتقلين وتخفيف الزحام في القاعة. وهناك أيضاً مجموعة الكرخ أمثال ضياء وصلاح وغيرهم. وهناك مجموعة المحافظات منهم الأخ حسن ورجل من مدينة الحي لا أذكر أسمه. وهناك مجموعة

خاصة كان يطلق عليهم مجموعة التجاوز، وهم الذين أعتقلوا وهم يحاولون تجاوز الحدود باتجاه إيران أو الشمال (كردستان العراق) أو تركيا أو سوريا أو السعودية. وكان معنا في المعتقل أيضاً مجاميع متفرقة من الذين اعتقلوا خطأً أو ليس لهم ملف محدد أو تمّ توقيفهم لفترات وجيزة انتظاراً لنقلهم الى سجون أخرى.

وكنت أنا ومن معي نسمى أحياناً مجموعة الحاسبات، نسبة الى مكتب الحاسبات الذي أعتقلنا فيه وبدأت رحلة السجن منه. وكانت طبيعة عملنا في المكتب قبل الاعتقال تشجّع باقي السجناء للاستفهام عن عالم الحاسبات ومجالاتها الطباعية. وكانوا ينتهزون فرصة وجودنا بينهم، ليسألوا عن مجال الحاسبات وطريقة عملها والمجالات الهندسية والنشرية التي تستخدم فيها. وقد كان العمل في مجال هندسة الحاسبات جديداً ولم ينتشر بعد في بغداد، كما إن الإنترنيت لم يظهر بعد في ذلك الحين، أي في منتصف التسعينيات. وأذكر من بين الأشخاص الذين تم التعرف عليهم والتواصل معهم في المعتقل، وهو من منطقة الكرادة في بغداد، وأظنه كان طبيباً اسمه علي، وكان يسألنا ويحاورنا عن مجال تخصصنا وعملنا، وكذا الأخ الشيخ ياسر من الكرادة أيضاً. وكم أتمنى لو نلتقي ثانية بهؤلاء بعد هذا الفراق الطويل، وتلك السنين التي مضت على اعتقالنا ولقائنا داخل الزنزانة.

- إن تنوع شخصيات السجناء التي معنا، من المظاهر المعتادة التي كنا نعيشها، وذلك لأن شدة التباين بين السجناء تجعل التجانس بينهم أمراً صعباً، كما تتنوع في برزخنا الجنسيات والقوميات والأديان، فهنالك الغني والفقير والعصبي المزاج والبارد الطباع، كما أن هناك الصغير المراهق والعجوز الكبير، والمترف الرقيق والخشن ذو الغلظة والجلافة، ومن أمثال تلك الشخصيات: رجل كبير مترف وذو ثقافة عالية، وكان يعيش بقربه في محجر واحد، رجل آخر يناقضه في الكثير من خصاله، وكان سكيراً وعابثاً. وكان يعمل سائقاً ودلالاً وسمساراً وكان ذا ثقافة متواضعة، ورغم مواصفاته تلك فقد كان في نفس الوقت، رقيق القلب بسيطاً كريماً، وتلك من غرائب الصور والمفارقات، حين تجتمع المتناقضات في الشخصية العراقية كما يقول د. علي الوردي في العديد من كتبه المعروفة. وكان من خصاله المزعجة أنه كان مهرّجاً ثرثاراً كثير المزاح، فكان الرجل الأول (المترف) يتكلم أحياناً باللغة الإنكليزية، كأن يقول ما معناه (اللعنة) أو (ماذا) أو (من فضلك)! فيجيبه الثاني بفضول وسخرية.. ويقول له (أنت بطران). وكان يسرق بعض حاجاته وأدواته ويخفيها لفترة، ثم يظهرها بعد فترة من التوتر والبحث، وكانت تلك الأعمال تزعجه وتثيره كثيراً. وقد كانت معظم أدوات هذا الشخص من النوع الغالي والجيد الصنع، وكان بعضها من نوع الاستخدام الواحد

(Disposable) سواء في ذلك القدح والملعقة والمروحة اليدوية وغيرها من الحاجات الشخصية. لقد كان هذا الرجل الطيب يتوق الى العيش براحة وترف، حتى داخل المعتقل، وهو ما كان يستهجنه جاره وزميله، الذي تربى على النقيض من ذلك. فقد تربى على الخشونة والبساطة والكفاف وشظف العيش والعوز.

- وفي صورة أخرى من صور التنوع في أشخاص البرزخ، وجود صبي مراهق كنا نسميه (٨٣) لأنه يدعي أنه من مواليد ١٩٨٣ (أي أن عمره اثنا عشرة سنة كما يدعي خطءاً) ولكنه كان بذيء اللسان سيء الأخلاق (تربية شوارع)، وكان يجادل كل من حوله ويتجاوز عليهم، مما اضطر المراقب أن يسلمه للسجان لمعاقبته وضربه مرات عديدة، وكان معظم الشجار يحدث أثناء توزيع الطعام أو بعد منتصف الليل وفي أثناء وجبات النوم المتراص بينه وبين بعض السجناء، لأنه كان يغشّ في العدّ أو يكذب ولا يلتزم بالتعليمات.

- ومن صور الزنزانة الطريفة، أن جاء إلى الزنزانة رجل طيب ذو مسحة إيمانية واضحة، لكنه كان مضطرباً، ولم يكن قد استوعب أنه سيعيش في هذه الظلمة، وشاء القدر أن يكون مكان نومه بقربي، وبعد ساعة ذهب عنه الروع واستراح، فقلت له: يا أخي يمكنك أن تستخدم حذاءك وسترتك بدل الوسادة لكي تنام قليلاً، فأخذ يتمتم مع نفسه ويقول: وأين سأجد مكاناً للوسادة؟ وهل

سأجد مكاناً يكفي لكي أضع رأسي وأنام؟؟ وأنا أسمعه وأبتسم دون أن أقاطعه أو أحاول توضيح الأمر المؤسف له، لأنه سوف يتكيف ويتأقلم مع هذه الكثافة البشرية المتعبة بعد يوم أو يومين في أبعد تقدير.

- من الأحداث الطريفة والمحزنة التي عشناها في أيام الشتاء البارد، قصة ذلك الرجل المسكين الذي جاورني لمدة أسبوعين، وقد أمضى في المعتقل عاماً كاملاً تقريباً، ولم يلمس أي تطور أو تحرك في قضيته. وكان هذا الرجل قد انتابه اليأس والحزن على حاله. وكان وضعه الصحي يزداد سوءاً مع الأيام. وقد أصبح نحيفاً جداً حتى وصل الى حالة من الهزال كأنه عظم بلا لحم. وكان قليل الحركة كثير النوم. وفي يوم بكامله لم يستطع التحرك من مكانه، فكان يأكل قليلاً ثم ينام. وعندما حان موعد النوم الإجباري حسب نظام لوائح المعتقل في الساعة (١٢) ليلاً نمت متراصاً معه، غير أني حين استقظت لصلاة الفجر، فوجئت بأن الفراش الذي كان بيننا قد أبتل، وكانت ملابسي أيضاً مبللة، فعجبت من ذلك!.. ولم أستطع أن أفسرّ ذلك أو أعرف مصدر الرطوبة، إلا بعد أن صرخ شخص ثالث كان ينام بجواره من الجهة الثانية: إن ملابسه قد ابتلت أيضاً، فعرفنا أن جارنا قد تبوّل على نفسه، فكان شديد الخجل واعتذر إلينا فقلنا له: لا تبتئس على ما حصل فان الله تعالى

يقول: ﴿ليس على المريض حرج﴾[٥١]. والطريف انه في صباح ذلك اليــوم تم استدعاؤه ونقله إلى مكان آخر خارج المعتقل الأمني اســتعداداً لمحاكمته، وكانت قضيته من القضايا البسيطة التي يمكن تجاوزها بكفالة أو تعهد خطي. فأقبل عليّ وعلى بقية رفاقه فقبلنــا وفــرح كثيراً بعد ذلك الحرج، وكانــت فعلتــه بســبب وضــعه المرضــي والنفسي، كأنها وداعاً لذلك العالم الســفلي، فرحــل حيــث أهلــه وأطفاله غير آسف على عالمنا المتعب السحيق.

• من القصص الأخرى التي عشنا لحظاتها ودقائقها باهتمام فــي الزنزانة، كانت قصة سرقة التمر والفضيحة التي تلت تلك العملية، فهي أيضاً من القصص الطريفة التي تعلق بالذاكرة، في عالم يخلو من الأحداث اليومية المهمة تقريباً. ففي أيام الجوع والحرمان وفي أحد أيام شهر آذار، وصل إلى القاعة وعاءان من التمر من النوع الزهدي الرديء كالمعتاد، فشعر أحد المراقبين أن الكميــة جيــدة، وأراد أن يسرق وعاءاً منه بالاتفاق مع مجموعته، وفعلاً تم تنفيــذ السرقة وتم توزيع الوعاء الآخر وكانت حصة الواحــد منــا (١٢) تمرة، وهي كمية كبيرة تدعو للغبطة والفرح بهذا الرزق في يــوم عسير. غير أن بعض السجناء القدماء الســاكنين قــرب محجــر المراقب، من الذين طوى الجوع أمعاءهم، كانوا لا يغفلــون عــن

---

[٥١] سورة الفتح/ ١٧.

الباب وما يدخل للقاعة وما يخرج منها الى المحـــاجر والقاعـــات، على أمل أن يذكرهم أحد الحراس بخبز أو بقايـــا طعـــام. فشـــاهد أحدهم الوعاء الثاني الذي أُخفي في الحمام، فأبلغ من حوله بذلك، وثارت ضجة وصياح في القاعة، تدخّل على أثرها الحرس ثم جاء ضابط الموقف ليتحقق من سبب الضجّة. وتم بعد التحقيق الأولـــي معاقبة بعض السجناء بالضرب لتسببهم في احداث الهرج والمـــرج والفوضى داخل المعتقل. وتم إخراج آخرين لينالوا العقاب خـــارج القاعة، لكنهم استطاعوا إثبات السرقة على مراقب القاعة، وتمكنوا من إقناع الضابط بأن تهمة السرقة قـــد تلبســـته، فقـــام بمعاقبـــة المراقب ونقله خارج القاعة واختيار أحد السجناء بدلاً عنه.

- من الصور الأخرى التي عشنا تفاصيلها في المعتقـــل، صـــور تخزين الأطعمة وحفظها من التلف في ظروف استثنائية. فقد كنـــا نحاول أن نجد طرقاً مختلفة لخزن الأطعمة وحفظها، لكي نتناولهـــا خلال الفترة بين مواجهتين مع الأهل. وقد كانـــت أفضـــل الطـــرق والأساليب نجاحاً وفائدة، هي حفظ الخبز والصمون يابســـاً علـــى صورة القديد[52]، وكنت أتذكر حديث النبي ﷺ لمـــن كانـــت تأخـــذه الهيبة من حضور شخصه الكريم، ومن كان يخشاه مـــن النـــاس،

---

[52] هكذا كتبتها في المذكرات داخل السجن، وأظن أني أخطأت في معنى القديد، حيث أن القديد هو اللحم المجفف وليس الخبز اليابس، وقد اشتهر القديد بمكة منذ القدم، إذ كان لحم الأضاحي في مكة يجفف ويخزن.

فيتلطّف معه ويقول له: لا تخف يا أخا العرب، إنما أنا ابن امــرأةٍ كانت تأكل القديد بمكة.

أما الخضروات والفواكه فقد كنا نحولها إلى مخلــلات (طرشـــي)، وكذلك كنا نحاول حفظ التمر بالدبس والسمسم والحبـــة الســـوداء (حبة البركة)، وكنا نسميه (تمر مدبس)، وأحياناً نخلطه بالراشـــي عن الأكل، وغيرها من المأكولات الجافة، التي كانت تقاوم الحرارة والرطوبة والظروف الجوية التي كنا نعيشها. وكنا في ذلك الظرف نعتمد بشكل أساسي على (التمريات والمعجنات) لمواجهة الجــوع والظروف الصعبة، التي تحيط بنا من كل مكان. ولقد أصبحت لدينا قناعة يقينية إننا بدون التمر لا نستطيع أن نعيش في حياة البرزخ هذه لأكثر من أيام أو أسابيع معدودة.

- من الأحداث الطريفة الأخرى التي واجهتنا حــين نُقلنــا إلــى معتقل (المقبرة)، أنه بعد فترة من وصولنا الى المكان الجديد - لا تزيد عن أسبوع - نفِدَ عندنا الطعام، وبدأت الأمور تســوء وبــدأ الجوع يعود بعد غيبة طويلة، وبدأنا نشعر أننا على أعتاب الرجوع إلى أيام الوجبة الواحدة وإلى وجبة الصمون المملّــح الإجباريـــة، ولكن رحمة الله ولطفه وعنايته كانت معنا ولم تتركنا نجوع كثيراً، حيث أكرم الله سبحانه أحد أفراد مجموعتنا بالمواجهة مرتين عــن طريق الخطأً، بسبب تشابه اسمه مع اسم شخص آخر، وكان هــذا الشخص قد حُوكِمَ ونُقل إلى السجن التقليــدي، قبيــل نقلنــا إلــى

المقبرة. وهكذا مَنَّ اللهُ علينا بالطعام الوفير مرّة أخرى، طيلة شهر أو أكثر بغير حساب، ودون أن يكون لنا قصد في تدبيره، وبـــدون أسباب مادية، مما جعل وضعنا أفضل من بقية أقراننا، وكانت تلـــك الحادثة نوع من العناية الإلهية التي لمسنا أمثالها مراراً في حيـــاة البرزخ، فعلى الرغم من حرماننا من مواجهة الأهل إلا أننا رُزِقنـــا الطعام الذي يمدنا بالقوة والصمود، لمواجهـــة الحـــرّ والرطوبـــة والجوع داخل تلك المقبرة الفريدة. ولقد كان أهلي في حيـــرةٍ مـــن الأمر، وهم يتساءلون: لماذا منعت عني المواجهة، فـــي حـــين أن صاحبي يواجه أهله مرتين؟!. وكانوا يظنون أن أمراً مكروهاً قـــد حدث لي.. وقد استطاعوا إيصال الطعام لي مع صاحبي، غير أنني أخبرتهم بعد انفراج الأمر ورجوعنا إلى معتقل التابوت ولقاءهم في المواجهة التالية وبأسلوب الطرفة، بأن تلك المواجهة كانت كرامة لنا ورعاية خاصة من الرحمـــن، حتى لا نجوع، وأن الأمور تجـــري بشكل اعتيادي، فعجبوا مما حدث وفرحوا لنا.

- ومن طريف ما حصل لي في المقبرة أيضاً، إنني قبل نقلنا إلـــى هذا المكان كنت ألحّ في رسائلي الى أخي على ضـــرورة تزويـــدي بالتفاصيل والأخبار المهمة وكل ما يجري من أحداث مهمة تخصنا، حيث كانت المراسلات من الأمور المهمة في حياتنا، وذلك لأن فترة المواجهة كانت قصيرة، ولا نستطيع أن نشفي غليلنا مـــن رؤيـــة الأحباب والأصحاب، فكانت الرسائل تعين على رسم صورة لا بأس

بها عن العالم الخارجي، ونحن نعيش حياة معزولة عـن العـالم. وبسبب الإلحاح، كتب لي أخي تفاصيل مهمة وخطيـرة فـي ذلـك الوقت عن المحاكمة وموعـدها وأسـماء القضـاة والمسـؤولين والجهود المبذولة لإخراجنا أو محاولات التخفيف في قرار الحكـم المتوقع، وقد فرحت بها وكتبت له الجواب، وكتبت رسالة أخـرى لزوجتي. وكنا نتبادل الرسائل سراً أثناء المواجهة، لأن الرسـائل الشخصية والعائلية كانت مـن الأمـور الممنوعـة والمحظـورة، وصادف أن نقلنا الى مكان آخر بعد ذلك بفترة قصيرة، ولم يكـن هناك متسع من الوقت لإخفاء الرسائل في مكـان أمـين وخفـي، بسبب السرعة الخاطفة في الاستعداد للرحيل، حيث أخفيت جميـع الرسائل في غطاء الوسادة لفراشي الشخصي، وعند وصولنا إلـى معتقل المقبرة، كان التفتيش دقيقاً ومتعسّفاً، حيث فُتّشَـتْ جميـع حاجاتنا وطعامنا وملابسنا وأجسامنا، وكأننا أسرى حرب من دولة أجنبية أخرى. وتمت مصادرة نصف طعامنا وجميع الأدوية التـي بحوزتنا، ومنها أيضاً جميع الرسائل التي كانت تصلني من الأهـل والأصدقاء، بضمنها تلك الرسالة المهمة ذات المعلومات الخطيرة، وبقيتُ تلك الليلة واليوم التالي في قلق شـديد، ولا أعـرف كيـف أعالج الأمر.. ومن حسن الحظ أن هـذه الرسـائل مـع رسـائل الآخرين، كانت قد وضعت في مكان ما خارج الموقف وقرب نقطة الحرس، ولم يستلمها أحد الضباط أو المسؤولين. وقد كان الحرس

يقرأها ويقلبها يومياً ولمدة أربعة أيام. ومرة أخرى تأتي العناية الإلهية لنا بصورة شخص من الحرس يتعرّف على أحد أصحابي السجناء، حيث كان قد جاوره في منطقة سكناه في زمن سابق، وبدأت المفاوضات معه لمدة ثلاثة أيام في محاولة لإقناعه بإرسال الرسائل إلى أهلينا مقابل مبلغ من المال، ولكنه كان يخاف أن ينكشف أمره!! وقد كان همي الأساسي هو إنقاذ تلك الرسائل الخطيرة قبل أن ينكشف أمرها، وقبل أن تسبب لنا مشكلةً!. وتم أخيراً الاتفاق معه بعد أن أرسلنا له رسالة الاتفاق التوضيحية، ووضعناها بداخل علبة الدواء (مرهم)، وعلى ضوء هذا الاتفاق السري تم إرسال رسالتين إلى الأهل، مع تمزيق الرسالة المقصودة، مقابل مبلغ معين من المال. واستطعنا أن ننام بشيء من راحة البال، بعد انقاذ الرسائل من أيدي السجانين وعدم افشاء الاسرار التي كانت فيها. لقد كان الموقف حرجاً لم أنسه لحد الآن، والطريف أن هذا الحرس الذي أنقذنا ونفّذ ما طلبنا منه، قد نُقل بعد ذلك بأيام قليلة، وكأنه ظهر في عالمنا لهذه المهمة ثم رحل، فسبحان الله اللطيف الكريم.

- من طرائف المعتقل الأخرى أن جيء بشخص كان اسمه غريب إلى القاعة في أحد أيام القاعة المظلمة. وقد كان الوقت ضحى، وكان هذا الرجل الغريب اسماً ومسمى، كأنه جاء من المريخ أو من عالم بعيد عنا وله طريقة خاصة في التفكير، تختلف عن

طريقة الكثير منا. فقد كان هذا الرجل يختلف عمن قبلـــه أو مـــن جاء بعده. لقد كان رثّ الثياب قذر الجسم بشكل عجيب، وكأنه أحد المتسولين أو الهيبيز، رغم أن نظرة فاحصة إليه لا تدل على ذلك، وقد كنا نعلم أن القذارة والوسخ في المعتقل ليست أمراً شخصـــياً، وإنما هو أمر ظرفي. فقد تفرض على الشخص أمـــور كثيـــرة لا يستطيع ردّها، فلا يسمح له بالغسل وتنظيف ملابسه مـــثلاً، فـــي بعض الأماكن والمعتقلات السرية، ولأشـــهر طويلـــة. وربمـــا لا يستطيع تبديل ملبسه، لأنه بكل بساطة لا يمكنه عمل ذلك بحريـــة، لحرمانه من الاتصال بالأهل أو التصرف لتوفير تلك الملابس، فـــلا تصل له أية ملابس طوال مدة وجوده في الـــدهليز[٥٣]. وكـــذلك لا يتسنى للمعتقل تبديل فراش نومه ولا مكان جلوسه، بل قد يبقـــى يراوح في مكانه مقيداً لا يستطيع الحراك والتصرف لأشهر طويلة، فيبدو على غير الهيئة التي اعتاد عليها خارج المعتقـــل، إلـــى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً، ويفتح له فتحاً يعالج فيه ركام الوسخ والقذارة المفروضة عليه وعلى عالمه السفلي. لقد كان غريب هذا قليل الكلام هادئ الطبع. بدا لنا أنه رجل طيّب القلب ومتدين، مـــن أهل الفرات الأوسط، ذو أفكار ســـلفية واضـــحة ولكنهـــا معتدلـــة وغزيرة. كان قد أعتقل بسبب محاولة عبوره الحدود من الموصل

---

٥٣ كان بعض العتقلين من أصحاب النكتة والظرافة، يسمي المعتقل باسم لم نألفه سابقاً، وهو (الجخميتة)، ولعله لفظ أعجمي طريف، يعني الدهليز أو البرزخ والله أعلم.

إلى كردستان العراق ثم الى إيران (وتسمى هذه التهمة لدى جهاز الأمن، تهمة تجاوز الحدود غير المشروع) وظهر لنا أنه كـان ذا ثقافة عميقة ودقيقة وذا حافظة قويـة، فهـو يستشـهد بالآيـات القرآنية والأحاديث النبوية بشكل تلقائي وبدون تكلّف، حتى كأنـه أحد علماء الحرم المكي، رغم أن عمره كان لا يتجاوز الخامسـة والعشرين، ولم يلبث معنا الا أياماً معدودة، حتى أصبح محط أنظار القاعة، وقد جاوز بعلمه وفتواه الشيخ عبد الله الذي كـان امـام القاعة في أوقات الصلاة وواعظها المفضل، وبزّ كـل مـن كـان يدعي العلم والثقافة الإسلامية ممن معنا. وقد كنت أنا وصـاحبي نحاول أن نساعده في الخروج من دوامة القذارة التي فرضت على جسده ومظهره. وقد أحب التقارب وأُنس تبادل الحديث معنا، وبعد مرور شهر تقريباً على مكوثه معنا، نودي على اسمه مـن قبـل الحرس وأخرج من القاعة. وكان ظننا أنه خرج إلى عالم الحريـة والعتق من ذلّ المعتقل، لكنه أعيد إلينا بعد أربعة أشهر من غيابه عنا. وقد علمنا منه فيما بعد، أنه ضُرب وعُذّب وأوذي خلال فترة التحقيق الماضية، ثم أُفرج عنه – في أغلب الظن – بعد أن مكث معنا شهراً آخراً، ولكنه بقي على سجيته السابقة قليـل الاخـتلاط والكلام والتلائم مع السجناء، وربما كان يحمل معـه سـراً دفينـاً وعالماً خاصاً به، لم يستطع أي منا الوقوف عليه والكشـف عـن كنهه.

• لقد حاول بعض المدمنين على التدخين من السجناء إيجاد بديل مناسب عن السجائر التي كان يتعاطاها خـارج السـجن، وذلـك باستخدام بقايا ورق الشاي المستخدم في اعداده (تخديره) بعد أن يقوموا بتجفيف هذه المادة المبللة (ورق الشاي) ثم يضـعوا هـذا المسحوق المجفف في ورق ملفوف بالطريقة البدائية المعروفة في تصنيع السكائر بـ(سكائر المزبّن واللف)، ثـم يقومـوا باشـعاله وتدخينه خفيةً وبأنفاس متقطعة، وذلك في الفترات التي ينعدم فيها الحصول على السجائر عن طريق التهريب السري، بواسطة بعض الحرس الذين يترزقون ويقتاتون على توفير ما يحتاجه المعتقلون وبأثمان باهضة غالباً. وذلك لأن التدخين من الممنوعات المعروفة في المعتقل، ويشمل ذلك المنع ادخال السجائر وشرائها وتعاطيها. ويشمل المنع أيضاً إدخال علـب الكبريـت أو أيـة مـادة قابلـة للاحتراق، وكذا العدد الخطرة سواء المصـنوعة مـن السـتيل أو الزجاج، خوفاً من حدوث أعمال الشغب أو الاقدام على الانتحار.

• كان معدل عدد السجناء في القاعة المظلمة، يتراوح بـين ٤٠ – ٦٥ فرداً. وهي غرفة صغيرة لا تتجاوز مساحتها ٣×٤,٥ متراً مربعاً، وغالباً ما يستقر العدد على معدل ٤٥ فرداً. أي إن المتـر المربع الواحد كان يعيش عليه أربعة أشـخاص علـى الأقـل[٥٤]،

---

[٥٤] إن هذا المعدل من البشر في مكان ضيّق ومحصور، يمكن أن يحتمل إذا كان لمدة قصيرة لا تتجاوز الساعة أو الساعتين أو في قاعة انتظار معاملة مزدحمة في دائرة

ويقسم العدد الكلي إلى مجاميع خماسية أو سداسية نطلق عليهـا اسم الـ(سفرداشية)، تسمى كل مجموعة من هذه المجاميع باسـم أحد أفراد المجموعة، ويكون عادة السجين الأكبر سنناً أو الأكثـر خبرة وعلماً بالحياة والادارة وله قدرة لمداراة ومتابعة من بمعيّته. ان مثل هذا الدور الاستشاري لـه أهميتـه الكبيـرة فـي حيـاة المعتقلين، وهو ما يسمى في الريف بـاسم (العارفة أو الشـيخ). تدار القاعة بنظام صارم وشديد ولكنه مفيـد ومحكـم، بواسـطة هؤلاء الرؤوس وبوجود رئيس القاعة وهو المراقب ومن معه من المساعدين، الذين يكون عددهم ثلاثة أو أربعـة عـادةً، فتـوزع الواجبات اليومية على السجناء وتقسّم الحقوق البسـيطة أيضـاً، كاستلام الطعام وتوزيعه وإيصال الأوامـر والتعليمـات وإجـراء التحقيقات، بعد اسـتدعاء السـجناء أمـام المحققـين، وكـذلك المواجهات المسـتعجلة القليلـة المـدة مـع الحـرس وبعـض المسؤولين. وقد كان أبرز المسؤولين الـذين نسـتطيع رؤيـتهم والتحدث اليهم لنقل جزء من معاناتنا ومطالبـا البسـيطة عـادة، الضابط المسؤول عن المعتقل ومساعديه من المفوضين والشرطة

حكومية، كما اعتاد الناس في معتقل الحياة الكبير، إلا أنه حين يكون طوال اليوم ولأسابيع وأشهر عديدة، يكون الأمر ثقيلاً وممرضاً ومثيراً للملل والاحباط، وترى فيه العجب العجاب من الممارسات المستفزّة والضيق القاتل، الذي يكتم الأنفاس ويلوّث الروح فضلاً عن الجسد والمكان.

السريين والحرس، وتخلو القاعة عادة من الصـــخب والضوضـــاء والصوت المرتفع، رغم هذه الكثرة المذهلة لعدد المعتقلين، بسبب التعليمات والعقوبات الصارمة، وربما بسبب المأساة التي يعيشـــها الجميع، فضلاً عن تأثير التشدّد فـــي التعليمـــات والخـــوف مـــن العقوبات التي يتعـــرض لهـــا المخـــالفون ومسبـــــبي الصـــخب والضوضاء. إن لائحة العقوبات رغم قلّة تنفيذها على الســـجناء، كانت قاسية وتحذيرية لمن تسوّل له نفسه المجازفـــة. ان أغلـــب الصخب والضوضاء التي تنتج عادة من ارتفـــاع الصـــوت كانـــت تحدث - عند حدوثها- في أوقات توزيع الطعام واستلامه، وذلـــك لرداءته وقلّته المجحفة أو عدم العدالة في توزيعه، فيصدر شـــيء من الاعتراض أحياناً من قبل بعض المرضى أو الضعاف، الـــذين يعانون من الهزال والجوع الدائم. وأحياناً أخرى يحدث الصـــخب بسبب تحيّز بعض المراقبين في توزيعه على المجاميع. ولقد كـــان أغلب الاعتراض على الطعام يصدر من قبل سجينين أو ثلاثة مـــن الضعاف والمرضى، من الذين مكثوا أكثر من سنة في ذلك الدهليز المظلم، فأصابهم المرض والهزال الحاد، أذكر منهم الأخ خمـــيس والأخ علي. إن أغلب المعتقلين معنا كانوا من الأغنياء الموسوري الحال ومن المثقفـــين ذوي التوجـــه الاســـلامي بشـــقيه الســـني والشيعي، مع وجود قلة من العلمانيين اليساريين، ويغلـــب علـــى معظمهم التدين والمسالمة والأخلاق الحسنة، ومع ذلك فقـــد كـــان

يحدث بين الحين والآخر بعض الشجار والاختلاف في الأمزجة والاجتهادات التي تؤدي الى الشغب.

• وقد يزج معنا بعض المراهقين من صغار الموقوفين، ممن لا تتجاوز أعمارهم سن العشرين، من الذين تم القبض عليهم لأسباب عديدة ومن خلال مداهمات للبيوت أو الأسواق أو حتى من الشارع للاشتباه بهم، وكان مكوثهم معنا لا يتجاوز الشهر ثم يفرج عنهم، وأذكر منهم أحد الشباب الطيب ويدعى هشام من منطقة العبيدي في بغداد، وكان من المتحمسين للدين والفضيلة ورفض الظلم والخطأ في المجتمع والبلد، وغالباً ما كان يجلس في مجلسنا المتواضع، وكان من الشباب الشيعة المتحمسين للوحدة والتقريب والدفاع عن أهل البيت والصحابة، ومحاربة البدع والخرافة وتصحيح الأفكار الدخيلة على التشيّع، والتي تثير الجدل والخلاف والفرقة والكراهية بين المسلمين. وذكر لي هذا الشاب الطيب أن مكان عمل والده في سوق الشورجة، ولا زلت أتذكره في نفسي بعد مضي سنين عديدة على اعتقالنا وأتمنى رؤيته ثانيةً، فقد أفرج عنه بسرعة. ومن الطريف أنه جاءني في صباح ذلك اليوم، وقص عليّ رؤياه، ذلك بأنه رأى نفسه في حفلة زفاف (زفّة عرس) منطلقة من منطقة بغداد الجديدة باتجاه ساحة النهضة وسط بغداد، وكان هو داخل سيارة ركّاب كبيرة (كوستر). وتمّ انزاله في ساحة النهضة، وكانت أصوات الغناء والاحتفال بالزفّة

تخرج من السيارة، فتُرِك في ساحة النهضة وانطلقت الزفّة لتكمل مسيرتها. وبعد أن قصّ عليّ رؤياه هذه، قلت له: أنت شاب طيب ومؤمن وتستحق كل خير. وأتوقع حسب رؤياك تلك، أن تخرج اليوم من هذا المكان المظلم وترى أهلك وأصحابك، فما أن جاء الظهر وصلى معنا في جماعة، حتى سمعنا الحرس ينادي أسمه، على أنه من ضمن الأسماء التي أفرج عنها. فجاء عليّ فرحاً وقبلني وغادرنا مسروراً بعد عناق أخوي شديد. وهكذا فرحنا بخروجه مع أخوته وفرحنا بنعمة السعة المؤقتة للمكان، حيث هبط عدد النزلاء والموقوفين لأول مرة إلى ٣٣ معتقلاً، ما لبث أن ارتفع بعد خمسة أيام إلى ٤٥ فرداً وهكذا.

- لقد كان في القاعة المظلمة أربعة أشخاص لهم أثر تربوي وروحي وفكري على المعتقلين، هم الشيخ عبد الله وكان متصوفاً صافي القلب والنفس، وهو شاب في الثلاثين من العمر، والشيخ حسن، وكان متشدداً في الرأي متأثراً بالفكر السلفي وكان في الخامسة والثلاثين من العمر، وأنا وقد جاوزت الأربعين من العمر وكنت أميل إلى المنهج الوسطي المعتدل سواء في المجال التربوي أو المنظار المذهبي والطائفي، والشخص الرابع وكان يدعى السيد وأسمه مهدي، وقد جاوز الأربعين أيضاً، وكان مهدي رغم تشدده في البداية، ضعيف الثقافة الاسلامية عموماً حتى في المذهب الذي يتبعه، وكان في رمضان يتناوب الدعاء مع الشيخ عبد الله، ولكن

سحر دعاء الشيخ عبد الله وجمال صوته وكثرة حفظه وضبطه للقرآن الكريم والحديث الشريف والدعاء المأثور، جعلت الأخ مهدي ينسحب، ويطلب بنفسه مرات عديدة من الأخ عبد الله أن يدعو الله لنا بعد أذان المغرب في رمضان (الإفطار)، بتلك الأدعية المأثورة وبذلك الصوت الخشوع العذب، حتى كنا نطرب ونخشع ونشعر بأن أرواحنا تنطلق خارج أسوار المعتقل، كأننا لسنا في زنزانة شديدة الكثافة في العدد، يحيطها الجرب والأمراض الجلدية المتنوعة. وكنا ننسى في ظل تلك الأجواء الروحية، تلك الرائحة الكريهة التي كانت تزكم أنوف الساكنين، وكذلك عفونة الرطوبة مع ركام من الأقذار المفروضة علينا، ومع كل ذلك الركام والجو الممسوخ المليء بما يجعل الحياة مستحيلة، سواء أكانت حياة الجسد أم حياة القلب، وجدنا أنفسنا قد عشنا – مع كل تلك المشاهد والصور الحزينة – أجمل أشهر رمضان مرّ علينا في حياتنا الماضية، روحانيةً وعبادةً وحفظاً للقرآن ونشاطاً وهمّة، فسبحان الله والحمد لله رب العالمين وسلام على من اصطفاه رحمة للعالمين. ولقد كنّا نسأل أنفسنا أحياناً السؤال التالي: يا ترى هل كنّا نحلم؟ أم كنّا مخدرين؟ أم انها مشاعر وأحاسيس جميلة أحاطت عالمنا المظلم ومحنتنا فأحالتها الى جنّة روحية في ذلك الشهر الفضيل؟. لسنا متأكدين من ذلك القبس الذي أضفى على حياتنا شيء من الراحة والسعادة، التي بدت لنا وكأنها هبطت

علينا من السماء.. كل الذي ندريه، أننا كنّا في تألّق روحي فريد وتأثير تربوي عالٍ، وصلة بالله قوية، أنستنا ذلك البؤس وتلك الحياة الخانقة. ولقد كان ذلك الشعور والسكينة نوع من اللطف والمدد الرباني ودفق متجدد من الرحمات الإلهية، نستمد منها الصبر والسلوان والقوة والمواصلة. ولقد كانت تلك النفحات الايمانية والمظاهر السلوكية الجميلة من الثمار الطيبة لنشاطات رمضان وما بعده، في تلك القاعة المظلمة الخالية من أي ضياء كهربائي عدا ضوء غير مباشر من مصباح يخترق القضبان الحديدية المطلّة على الممر الرئيسي، الذي يصل القاعة المظلمة بالمحاجر الأربعة وبالقاعة الثانية، التي أطلقنا عليها اسم التابوت.

- دخل معنا السجن بعد رمضان بفترة قصيرة، مجموعة من السرّاق الذين امتهنوا سرقة السيارات. وقد وُضعوا معنا مؤقتاً ربما لخطورتهم وعصيانهم على الشرطة التقليدية، وكان مكانهم بالقرب من مجموعتنا. وقد وصلوا السجن ظهراً، وبعد ساعتين من وصولهم، فاجأهم الشيخ حسن بأسلوبه الفضّ (المتشدد) بما يشعرهم بالاهانة والاحتقار، بعد أن حرّم التعامل والكلام معهم، بحجة أنهم سرّاق (حرامية) من عصابات التسليب وقطّاع الطرق، وأخذ يقرأ أمامهم الآيات التالية: ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما

﴿جزاءً بما كسبا نكالاً من الله والله عزيز حكيم﴾[55] .. فهبّ زعيمهم بوجهه – وقد رُسِم على ذراعيه رسوم عجيبة وكان له عضلات مفتولة ومتميزة – معنفاً له ومدافعاً عن مجموعته وهو يتهدده ويقول: سوف ترى يا حسن إذا ذهبنا إلى أبي غريب (السجن الرسمي الكبير) سوف أعلّمك من أنا. ورده الشيخ بعنف مماثل وحدث شجار وعراك، ولكننا استطعنا إيقافه بسهولة، وذلك لأن هذه العصابة كانت في فترة التحقيق، التي لا تخلو من الضرب والتعذيب. فأخذت الشيخ حسن جانباً، وقلت له: يا أخي نحن في مصيبة وفي محنة وأنت تريد أن تشنّع بهؤلاء، كلنا سجناء هنا. والكلمة الطيبة صدقة، والقول اللين يخرج الحية من الجحور. فقال: هؤلاء مجرمون لا يستحقون الاحترام، ومن الخطأ أن يسجنوا معنا هنا. ثم حدث أن جاء أحدهم بعد أيام من وجودهم معنا يسأل بصدق: هل أستطيع أن أقرأ القرآن دون أن أصلي، فقال له البعض: لا يجوز لك ذلك إلا أن تصلي أولاً لكي يقبل منك قراءة القرآن أو أي عمل صالح آخر، فقال له الشيخ عبد الله: يا أخي الطيب يمكنك أن تقرأ القرآن بدون صلاة، فان هذا له أجر وان أداء الصلاة واجب تحاسب على تركه، ففرح هذا السارق وبدأ يقرأ القرآن بعد أن توضأ. بعد أسبوع قال لي زعيم العصابة: إنني

---

[55] سورة المائدة/ ٣٨.

سأصلي جماعة معك أو مع شيخ عبد الله ولا أصلي خلف الشيخ حسن، فشجّعته وباركت خطوته تلك، وبعد أيام قليلة أرسلنا لهم مما عندنا من فضلة الطعام، وكانت عبارة عن قشور البرتقال مع تمرتين وشيء من المرق الخفيف الذي يعطى لنا كجزء من حصة التموين في السجن، وبعد أن أكلوا قاموا كلهم إلى الصلاة معنا إلا واحداً، كان حزيناً ومبتئساً ومهموماً لا يريد أن يكلّم أحداً، وبعد يوم واحد من هذا الانشراح والهداية الجماعية واقامة الصلاة، بتلك السرعة وذلك الاقبال الجميل، تمّ نقلهم إلى مكان آخر وانقطعت أخبارهم عنا.

• لقد كان متعهد الطعام أو المقاول المكلّف بجلب الطعام لنا، ذا صفات وسلوكيات غريبة، ولكنها كانت تنسجم مع وضعنا المذلّ في المعتقل. لقد كان مكلّفاً باعداد الطعام ونقله الى المعتقل في القاعتين والمحاجر الأربعة، والتي كان يقطنها أكثر من ١٥٠ شخصاً في مكان لا تتجاوز مساحته ٧٥ متراً مربعاً. والمكان كان في الطابق الثاني من بناية قديمة، يذكر البعض أنها بنيت في سبعينيات القرن الماضي، وتم تخصيصها للمعارضين للنظام في بداية حكم حزب البعث للعراق، ثم كثرت بعدها سجون الأمن والمخابرات والاستخبارات في بغداد، وخُصصت هذه البناية الصغيرة للموقوفين في أمن بغداد والأمن العامة. لقد كان هذا المتعهد غريب المظهر والسلوك والأطوار، فقد كان في الخمسين

من العمر يلبس غطاء (غترة) على رأسه مع قميص وبنطلون (مدني) وكانت سجارته لا تفارق فمه إلا نادراً، وكانت سيارته التي ينقل فيها قدور الطعام سيارة نوع شوفرليت أمريكي (سيارة حمل) موديل قديم قد يصل إلى موديل ١٩٦٥، وكانت يداه دائماً مغطاة بالدهون (هيدروليك السيارات) والأوساخ وكأنه مصلح سيارات (فيتر). وكنت أحياناً أمعن النظر في يديه وأجد فيها بقع سوداء من دهون السيارة المتنوعة، لأنه كان دائم التصليح لسيارته العتيقة، بسبب كثرة توقفاتها وأعطالها، وكان طبيعياً أن نجد بعض أدوات التصليح داخل قدور المرق والشوربة (الحساء). لقد كانت هذه السوائل (الشوربة أو المرق) ضرورية لنا في وجبتنا اليومية الخالية تقريباً من أي خضروات أو مواد صلبة، فضلاً عن ندرة دهن الطعام في أشكال الطعام الثلاثة الرتيبة (التمن، المرق، الشوربة). فهي التي كانت تبقينا أحياء وتدفيء أمعائنا وأجسادنا، على الرغم من افتقارها للمواد البروتينية والضرورية للطعام المفيد. لقد كانت حصة الفرد من ذلك الطعام اليومي المتواضع: قدح مرق مع قدح شوربة مع نصف قدح تمّن (رز) لليوم كله مع صمونة أو صمونتين صغيرتين. وغالباً ما كان هذا المتعهّد يتبرع بجزء غير قليل من طعامنا إلى كادر السجن من الضباط والشرطة والحرس، قبل البدء بتوزيعه. وكان هذا الرجل الذي اكتسب هذا التخويل وكأنه حق مكتسب، بسبب غياب الرقابة

والمتابعة لحال السجناء وضمور الشعور بالمسؤولية وانتشار الفساد الاداري داخل السجون السرية، كان حين يشعر بنقص واضح وكبير في حصص الطعام، لا يبالي بالقيام بإضافة الماء الاعتيادي (من حنفية الإسالة) إلى قدور المرق والشوربة، ورغم الصعوبة في تمييز الطعام المعرّض لهذه الإضافة عن الطعام المعد أصولياً (غير المغشوش)، فقد أصبحت لدينا خبرة في كشف ألاعيبه تلك ومعاتبته أحياناً، حين يكون قريباً من باب القاعة. وأحياناً يمارس هذا المتعهد دوره غير الشرعي في الزجر أو السب، فحينذاك نسكت ونصبر على سوء طعامه وسوء خلقه هذا. وللأمانة نقول إنه أحياناً كان يلاطف البعض، ويطلب منهم أن يفتشوا عن أدواته الميكانيكية وعدة التصليح في القدر الكبير، وكان يأخذ إذن لبعضنا للخروج من الزنزانة لهذا الغرض. والجدير بالذكر إن هذا المتعهد العتيد والذي كان معروفاً في دوائر الأمن، هو الذي أخبرنا في الأسبوع الأول لاعتقالنا في المركز الرئيس، بأن الذي ينتظرنا في المكان المخصص لاستقبالنا واستضافتنا، هو أسوء مما نراه الآن في تلك الغرفة الواسعة الباردة الخالية من كل وسائل الاستضافة والاستحمام، ولم نكن نتصور صحة كلامه ودقّة وصفه هذا، حتى عشناه واقعاً مأساوياً ملموساً.

- لقد أمضينا نصف المدة (أكثر من أربعة أشهر) في القاعة المظلمة وثلثها في قاعة التابوت، أما الشهرين الباقيين فكانت

مجزأة بين المحاجر وقاعة المقبرة (في مكان غير بعيد من جامعة بغداد في الجادرية)، وصادف أن فترة التابوت والمقبرة كانت فـــي أشهر الصيف الحارة، وتكاد تخلو من التبريد أو التهوية المعقولة، في حين كانت فترة القاعة المظلمة في أيام الشتاء البارد جداً مـــع الرطوبة والعفونة الممرضة. أما الشمس والتعرّض لأشعتها، فلــم نكن نستطيع أن نرها الا نصف ساعة في كــل أســبوع، بعــد أن انتشر بيننا الجرب والعديد من الأمراض الخطرة وبعد أن تعــددت الوفيات. فقد أوصى بعض الأطباء بضـــرورة تعــرّض أجســادنا للشمس والهواء الطلق، فأمر مدير السجن باخراجنا الـــى ســطح البناية المكشوف للشمس، وبمعدل مرة واحدة أسبوعياً لمدة نصف ساعة فقط وعلى شكل وجبات. أما في صيف التابوت فقــد كـــان الجو حاراً ملتهباً، جعلنا مضطرين للعيش بدون ملابـــس تقريبـــاً، ومع فقدان الماء وانقطاعه وصعوبة الغسل لضيق المكان والزحام الشديد، كنا نعيش في حمام ساخن بدون ماء، سوى ماء التعــرق الغزير وأملاحه البيضاء على جلودنا، ولما كان هذا الوضع يؤدي قطعاً إلى موت الجميع تباعاً، لذا رخص لنـــا القيـــام بالاغتســـال السريع، في زمن قياسي لا يزيد على ثلاثة دقائق للفـــرد الواحـــد يومياً، سرعان ما يتلاشى أثره بعد ساعة، لتغطي أمـــلاح العـــرق جلودنا من جديد. ولكن مع كل ذلك لم تكن أيام التابوت بثقل أيـــام القاعة المظلمة. فقد سمح لنا خلالها بإدخال بعض الطعام، الـــذي

كان يصل من أهلنا مع رؤيتهم خلال المواجهة، لمدة عشر دقــائق شهرياً. ولقد تلاشى أثر المرض في الصيف في مرحلة التــابوت، وربما كان الجرب وتداعياته الصــحية وآثــاره الجانبيــة، وهــو المرض الرئيسي هناك، يتناسب عكسياً مع شدة الحر. لقد ضعفت لدينا المعنويات والهمم في مرحلة التابوت وأصاب قلبنا شيء من الوهن، مع تلك التغيرات والأحداث المتتالية والهزال والملل الــذي أصابنا. وكذلك ضعفت الصلة بالله ونقصــت بشــكل ملحــوظ، ولا غرابة في ذلك فان الايمان يزيد وينقص، حســب اقبــال الــنفس وادبارها والظرف المحيط بالعبد. وقد قلّت قراءة القرآن وحفظــه أيضاً، كما أصبحت الصلاة أكثر رتابةً وأقــلّ خشــوعاً فــي تلــك المرحلة، رغم استمرار صلاة الجماعة خلف إمام واحد، كان غالباً هو الشيخ عبد الله أو نائبه.

- وفي أواخر أيام التابوت وفي أوج وهج الحرّ، جاء الفرج ومنّ الله علينا بالحرية، والخروج من حرّ جهنم ومن ضيق الدنيا وظلم الاعتقال، بسبب جرمنا المشهود في نشر الكلمة الطيبة والاصلاح وطلب الحرية في الفكر والسلوك، ومحاولتنا نقل المجتمــع مــن ضيق النظام واستبداده إلى سعة الدنيا والحياة الكريمة الطبيعيــة. لقد جاءت ساعة الفرج التي انتظرناهــا طــويلاً، ورجــع جميــع المعتقلين إلى بيوتهم وعوائلهم وأعمالهم في دوائرهم ومحلاتهــم التي كانت تأويهم قبل الدخول لهذا البرزخ القاسي. وبدأ النســيان

يزحف على العقول والقلوب، لأثر تلك الأيام القاسية التي عشناها بحلوها ومرّها ومرارتها وجوعها ومرضها وظلمها. وقد كانت تخفف عنا وتظلنا رحمة الله ولطفه وأنواره ونفحاته من خلال الأمل والإيمان والصبر الجميل والرؤى والأحلام. لقد كان بعض تلك الرؤى يتحقق بعد حين، ويكون صادقاً مثل فلق الصبح، وبعضها الآخر جعله الله لنا للاستئناس والأنس والسكينة والبشرى، وكان البعض الآخر من الرؤى والأحلام ما هي الا أخلاط وأضغاث أحلام ومزيج من الرعب والخوف من المصير المجهول، الذي كنّا نتوجّسه ونخشاه، من هول قسوة الأجهزة القمعية، التي كانت تدير السجون الأمنية، ومن وطأة الظلم الذي كانت تنوء به العقول والقلوب والضمائر المحتسبة إلى الله سبحانه.

تصوير معاناة السجين:

لقد استعرضنا في الفصول السابقة، حشــداً كبيــراً مــن الأحــداث والوقائع من المعاناة والمشاعر، التي يختلط فيها الحزن بــالفرح، والألم والظلم بالصبر والأمل، كما تتبعنــا معظــم أحــداث الجــوع والمرض، وتصوير حياة السجناء في مثل هذه المعتقلات بنوع من التفصيل والتداخل في الأحداث. وحاولنا تصوير العلاقات المتولّــدة بين المعتقلين وبين السجانين سلباً أو إيجاباً، ولعلنــا وفقنــا فــي تسجيل هذه المذكرات والذكريات الأليمــة، متجــاوزين المســتوى المقبول أدبياً وقصصياً، لأنني أشعر أن تسجيل تلك المعاناة بأسلوب قصصي أكثر رصانة ورقي، بحاجة إلى قاص محترف فــي كتابــة القصة، ولا أظن أن لدي ملكة قوية في هذا المجال، وإذا أضفنا إلى تلك المعضلة التي واجهتني، صــعوبة وخطــورة الكتابــة داخــل الزنزانة، حيث ولدت تلك المعاناة من تفاعــل الظــروف الصــعبة والحرمان والتعليمات الجائرة والظلم المستشــري، ســواء علــى مستوى ظروف المكان الســحيق والتعليمــات الأمنيــة المســتبدة والقاهرة في المعتقلات السرية أم على مســتوى ظــرف القضــية والتهم التي لُفّقت لنا عند اعتقالنا، لابعادنا عن عالمنا الحر وعــن النشاط الانساني والثقافي والاجتماعي خارج المعتقل. وأخيراً الأمر الأكثر خطورة وصعوبة، وهو عملية توفير الورق والقلم للكتابــة،

وكذلك آلية تهريب المذكرات المكتوبة إلى خارج المعتقل، وما فيها من مخاطر علينا وعلى المستلم والناقل لها، حيث كانت تتم بطرق سرية وبدقة متناهية، لأن الخطأ فيها وفي التعاطي معها كان مميتاً!. وقد يولّد كارثة أخرى لا تقل فداحة عن الوضع الذي كنّا فيه.

ومن الطريف أن نذكر إن هذه المذكرات كانت تكتب دون علم أغلب السجناء، على الرغم من الكثافة البشرية العالية، وكانت تكتب على شكل دفعات، وحسب ما يسمح به الظرف والمكان والوقت. ومن طرائف ما واجهتني من ظروف في كتابة هذه المذكرات، أنه في إحدى المرات التي تم تهريب القصاصات - الدفعة الثالثة - كانت الكتابة فيها شيء من الوضوح والخطورة، وكان فيها ذكر أسماء لبعض ضباط التحقيق وبعض ما يدور في عالمنا السري، فقلت للشخص الذي استلمها أثناء المواجهة سراً: إذا كُشف أمر هذه الأوراق التي بحوزتك، يجب أن تتلفها وتخفيها، حتى لو اضطررت الى ابتلاعها، لتتخلص من خطرها، فكانت هذه الكلمة تمثل صدمة عنيفة له، أدت الى مقاطعته لزيارتنا نهائياً. وهذه النتيجة كانت متوقعة من شاب في مقتبل العمر جاء لزيارة أحد أصاحبه، إذ كان الأخ زيد من أصدقائه المقربين، وقرر مع نفسه ألا يستلم أية رسالة سرية، مهما كان لونها أو حجمها أو موضوعها أو طريقة إخفائها. ولقد كنا نخفي معظم رسائلنا السرية في الملابس أو في

الكيس الذي توضع فيه الملابس والطعام، وأحياناً كنت أخفيها داخل الكيس وأخيط عليه رقعة أخرى من نفس مـادة الكـيس لتـأمين عبورها أثناء التفتيش، ومن ثَمّ تهريبها الى خارج السجن. ولقـد كانت تلك اللحظات - لحظات تسليم واستلام الرسائل والقصاصـات - مرهقة ومتعبة بالنسبة لنا. وها أنا الآن أقوم بفضل الله بجمـع القصاصات وتنقيحها وتدقيقها وتصحيحها، عسـى أن يـأتي يـوم وتطبع هذه المذكرات وتخرج إلى النور[٥٦] لكي تقرأ وتدرس ويـتم تداولها بين الناس، لكي تساهم في علاج تلـك العلـل والأمـراض

---

[٥٦] لقد شعرت بأنه آن الأوان الآن وبعد ثمان سنوات أن تطبع هذه المذكرات، وتروي للأجيال بعض معاناتنا داخل السجون في ظل النظم الشمولية، سواء في عموم العالم الثالث أم في العراق، وتتحدث عما كان يقاسيه الإنسان في ظل الحكم المستبد، وسياسة تكميم الأفواه ومصادرة الحريات والحقوق وفقدان الاحساس بالأمن والأمان، وتسخير كل شيء للقائد الفرد دون غيره. ومع ذلك ورغم مرارة الظلم الذي عشناه ولمسناه، وكثرة الأبرياء الذين رأيناهم وتعرّفنا على قصصهم وتيقنا من براءتهم، تماماً مثل: سجناء الرأي والكلمة في الشرق وجماعة (احنه بتوع الأوتوبيس) التي تصور الظلم والقهر في عهد عبد الناصر، ومعتقلوا نقرة السلمان في العراق وغيرها. ومع ذلك لا يمكن أن نضع اللوم كله على الحاكم المستبد وحده، في النظم الشمولية الفردية، التي تسلّطت على العالم الثالث، وإنما قد يعود الذنب أيضاً على الشعب نفسه، وعلى الذين نافقوا واستمرؤا الظلم ومارسوه في مؤسسات الظلم والاستبداد، كفراعنة صغار مثّلوا في مواقف كثيرة الفرعون نفسه، سواء بعلمه أم بدون علمه، وقد يكونون أشدّ بطشاً منه وكانوا ملكيون أكثر من الملك، بسبب آفات التخلّف الاجتماعي والسياسي وأمراض الفسق والفجور الشامل، الذي تعيشه الشعوب في ظل قرون التيه والبعد عن قيم الحضارة والأخلاق الفاضلة، قال تعالى: (فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين). سورة الزخرف/ ٥٤.

السياسية والأمنية في عالمنا المتخلف، وتدافع عن الإنسان وكرامته وحريته وتوفير الحماية والحصانة الأمنية له، أسوة بالإنسان في كل مكان.

وأقول من داخل المعتقل في ذلك كما يقول الشاعر:

أنا لست أدري هل ستذكر قصتي   أم سوف يعدوها دجى النسيان

أم أنني سأكون في تأريخنا   متآمراً أم هادم الأوثان

كل الذي أدريه أن تجرعي   كأس المذلّة ليس في أمكاني

وإلى لقاءٍ تحت ظل عدالةٍ   قدسية الأحكام والميزان

والحمد لله على فضله بالنجاة والفرج وعدم انكشاف أمر هذه المذكرات، حتى ظهرت بشكل كتاب منشور في المكتبات ودور النشر وعلى مواقع شبكة الانترنت، يقرأه الناس بكل حرية، للتعرّف عما جرى لنا من أحداث جسام وأهوال عظيمة تقشعر لها الأبدان.

السينما وصور العذاب في المعتقلات:

في معتقل (المقبرة) وفي ليلة من ليالي الصيف في شهر حزيران، كنت أستعرض في ذهني بعض الأفلام السينمائية التي شاهدتها قبل السجن، العربية منها والأجنبية، التي كانت تصور معاناة الإنسان، وتصور الفساد الإداري والأخلاقي لمؤسسات الدول المتخلفة وتنظيماتها، لاسيما مؤسسات الأجهزة الأمنية. وفي تلك الوقفة الحالمة استطعت استذكار بعض تلك الأفلام السينمائية التي مرت بذاكرتي، منها: فيلم (الكرنك) و(إحنه بتوع الأوتوبيس) و(قبضة معلم) و(إرهاب وكباب).. وغيرها من الأفلام العربية، التي عشنا معها ومع أحداثها خلال السنين الخوالي، فضلاً عن بعض الأفلام الأخرى التي شاهدتها في السنوات الأخيرة، كقصة الطائرة المفقودة في فيلم امبراطوية السيد.. لأحمد زكي ويسرا وجميل راتب، واستذكرت أيضاً فيلم آخر قديم أخرجه المخرج صلاح أبو سيف وقام ببطولته عبد المنعم إبراهيم وهند رستم. يصور هذا الفيلم قصة معاناة مجموعة من الناس محصورين في مصعد كهربائي في عمارة، بعد أن تعطل المصعد في أحد طوابق العمارة.. وكانت أحداث تلك القصة الغريبة تجري في ذلك المكان الضيق (المصعد). ومن الأفلام الأجنبية: فيلم (الإمبراطور الأخير)، وفلم (امرأة المافيا)، وفلم آخر لا أذكر اسمه، يصور الحرب الأمريكية

اليابانية في نهاية الحرب العالمية الثانية. وكان بطل القصـــة فيــه صبي إنكليزي مترف ومدلل في عمر المراهقة، لكنه يضطر للتكيف والعيش في معسكر اعتقال ياباني، بعد أن ضاع وتاه عن والديـــه، بسبب رحيلهم المفاجيء والاضطراري من المدينة من جراء أحداث الحرب، فبقي في قصر والده الواسع الفخم لوحده لأيام عديدة، ثـــم اضطر للخروج الى المدينة بعد نفاد الطعام المخزون فـــي البيـــت. وانتهى به الأمر الى معسكر الأسر بعد أحداث ومغامرات دراماتيكية مع اللصوص والهاربين من أتون الحرب وقوات الجيش المنتشـــر في المدينة. وهو فيلم مشهور حصل على جـــائزة الأوســـكار فـــي وقته، وغيرها من الأفلام العالمية التي كنت قد شاهدتها قبل دخولي المعتقل، والتي كان لها صلة بالواقع الجديد الذي نعيشه، وشـــعرت أن بعض أحداثها تنطبق على حالنا ومعاناتنا في هذا المكان الضيق السحيق، وفي تلك الظروف المعيشية الخانقـــة. لقـــد كنـــت أحلـــم وأتمنى أن تقوم السينما العربية – لاسيما المصـــرية – بتصـــوير معاناة السجين في المعتقلات السرية في العالم العربـــي، وتطـــرح على الملأ والرأي العام العربي والعالمي، خرق الأنظمـــة العربيـــة المستبدة ذات الحكم الشمولي الفـــردي، لأبســـط مبـــادئ حقـــوق الإنسان. لقد تخيلت بعض أحداث ذلك الفيلم وهو يطـــرح قضـــيتنا بأسلوب ساخر وهادف في آن واحد، ويفضح الوسائل والأســـاليب القمعية الخفية التي تستخدمها أجهزة الأمن والأنظمة المســـتبدة أو

النظم العميلــة والمرتبطــة بأجنــدات أجنبيــة، بحــقّ المعتقلــين والموقوفين والسجناء، لاسيما ســجناء الــرأي والكلمــة الحــرة، والكثير من المتهمين الأبرياء المنسيين فــي المعــتقلات الســرية والعلنية، التي يعج بها عالمنا الثالث المتخلف. ذلك العــالم الــذي تميّز بالتخلف والانحطاط خلال القرن العشرين بشكل ليس له نظير، مقارنة مع ما موجود في العالم المتحضــر الأول والثــاني. ذلــك التصنيف الطريف الذي صنفنا فيه الغرب، والــذي يصــور مــدى التخلّف الذي يعيشه عالمنا العربي على كافة الأصعدة والمستويات، ومن بينها تعامله الشاذ مع ملف حقوق الانسان وكرامته المهدورة لأتفه الأسباب. فتكون الصورة حينها أبلغ وأعمق أثراً من الكلمة.. وفي استغراقي في ذلك الخيال، كنت أتمنى أن يقوم ببطولــة مثــل هذه الأفلام كبار ممثلي السينما الجادة والساخرة في مصر، أمثال: محمــد صبحي ونور الشريف وأحمد زكي وجميل راتب وممــدوح عبد العليم وأمينة رزق وآثار الحكيم وليلى علــوي (لقــد تــوفي بعضهم مؤخراً) وغيرهم من الممثلين والممثلات، ممن كنت أتوسم فيه أنه يؤمن بالدور الهادف للفن السينمائي، وطرح القضايا التــي تعكس معاناة الإنسان وقضاياه الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، لاسيما في الشرق الاسلامي والعالم العربي بالذات. فهنــاك الكثيــر من الأفلام والقصص التي تحاول تصوير الشر، الذي يمــلأ قلــب الإنسان فرداً وجماعةً ودولاً وشعوباً، حين تسيطر النــزعة الفردية

والعنصرية وعبادة الذات والدوران حولها، وتقـديس الأنـا تحـت مختلف الذرائع، كما حصل في العراق في عهد صدام وفي مصـر وفي تونس وتركيا وروسيا وألمانيا في عهود سـابقة، ولا سـبيل لمحاربة هذا المرض الشائع في عالمنا المعاصر إلا بالعمل الـدؤب لاشاعة جو الحرية والعـدل والشـورى والإيمـان بالتـعددية واللاإكراهية في الفكر والعقائد، سواء في السياسة أو الاجتماع أو الدين.. فالأنـا وعبادتهـا وتقديسـها وتغذيـة نزعتهـا الفرديـة والاستبدادية، هي – بحق – عدو الإنسان والعقبة الكئود في سبيل بناء المجتمع الفاضل، ولا خلاص منها إلا بالتجرد ونكران الـذات والوعي الحرّ الموضوعي وتحرير العقل وتطهير القلب من التعصب والخرافة، وإخلاص العبـادة لخـالق الـذات والأنـا والأشـخاص والشعوب، فيعيش الإنسان حينها في سكينة واطمئنـان (ألا بذكر الله تطمئن القلوب)[٥٧]. وقد قيل في الحكم المأثورة على لسان الربانيين، وهم يحذرون عباد الله الصالحين والسالكين طريـق الهـدى مـن الأتقياء المخلصين. يحذرونهم من الأنا وحب الذات وأثـر الهـوى وخطورة النوازع الذاتية على قلوب المؤمنين، وما يمكن أن تعانيه نفوسهم الكبيرة من مرض حب الرئاسة والتنافس علـى السـلطة، فيقول أحدهم: <u>ان آخر ما يخرج من قلوب الصـالحين، هـو حـب</u>

[٥٧] سورة الرعد/ ٢٨.

الرئاسة. فكيف يكون الأمر مع عامة الناس من الجهلة وأهل الدنيا من الحكام والمحكومين!.

تلك خاطرة خطرت لي، وأنا أعدّ أنفاسي في ليلة حارة رطبة في مقبرة الأحياء، وأتفكّر في حالي وحال من حولي، ساهراً ومتحفزاً وفي حالة من الأرق المعطر برائحة البول والعرق، أنتظر انقشاع الظلام ودخول الفجر. وأرقب عقارب الساعة، عسى أن تمضي تلك الليلة بثقلها، وعسى أن تنجلي تلك الظلمات في ذلك الليل البهيم في ردهة الاعتقال. تلك الظلمات والزفرات، التي عشنا في أتونها طيلة الأشهر الماضية، والتي ذكرنا تفاصيل أحداثها آنفاً. ومن يدري لعل تلك الأمنية تتحقق في يوم ما.. فيرتدع أهل الظلم والبغي عن تلك الوسائل الوضيعة في التعامل مع البشر، سواء داخل السجون والمعتقلات، كما رأينا في معتقل الغرفة المظلمة أو التابوت أو المقبرة، أم خارج هذه السجون في سجن الحياة الكبير، الذي يعاني منه الإنسان ظلم أخيه الإنسان وظلم دوله وحكامه في شرقنا الحبيب، الذي يعيش القهر والظلم منذ قرون تحت مختلف المبررات والذرائع. ان الحقيقة التي لا مناص من تسجيلها هنا، تمكن في سبب تخلفنا وتراجعنا عن دورنا الرائد في الحضارة المعاصرة، والتي تعود لتلك العلل والأمراض المزمنة، التي عملت جاهدة لاغراق عالمنا بالأفكار الفاسدة المتخلفة، من أجل المحافظة على السلطة والحكم الفردي الاستبدادي، المحافظة على كراسي

الحكم وطلب الخلود السلطوي، حتى اذا كان الثمن هو قتل الحياة والحضارة نفسها، وايقاف عجلة الاصلاح والتقدم والرقي الحضاري على مستوى الفرد ومستوى الأمة، بكل تياراتها وثقافاتها وتوجهاتها الأصيلة. لقد خلّد أحد الشعراء المصريين الأحرار تلك المعاني في احدى قصائده عن عصر عبد الناصر الفردي الشمولي، ومنها المقطع التالي:

لم يبقَ مسموعاً سوى صوت النفاق
صوت الذين يقدّسون الفرد من دون الاله
ويسبّحون بحمده ويقدّمون له الصلاة

نهاية المحنة:

لقد كانت الأيام الأخيرة في المعتقل وتحديداً ما بين يوم ١٥ الى ٢٣ من تموز، أياماً عسيرة وثقيلة على النفس، ثقل المصير المجهول، وثقل الفراق عن الأحبة، وثقل لهيب السموم وحرّ تموز الذي نتعرض له يومياً في الوقت ذاته. إنها لم تكن أياماً صعبة وثقيلة فحسب، بل كانت ساعات ثقيلة أيضاً، ولكن مع هذا العسر الذي عشناه مؤخراً في قاعة التابوت، والذي زاد فيه عدد المعتقلين الى أكثر من ستين شخصاً، لم يقترفوا أي ذنب أو خطأ في حق المجتمع، سوى أنهم خرجوا في يوم من الأيام، لطلب الرزق وعلى أمل أن تشرق عليهم الشمس في يوم جديد، فلم يشعروا ولم يخطر ببالهم أن يودعوا ذلك السجن والمعتقل، ربما كانت لأتفه الأسباب في نظرهم، ولكنها أخطاءٌ توجب العقوبة الصارمة بنظر الطاغوت. وربما لأنهم خالفوا توجيهاً أو قانوناً جائراً معيناً، أو داسوا على جنّ سليمان وتجاوزوا تعليمات النظام وما يفرضه على الشعب المسالم المسكين.. وهكذا نجد أن المخالفات والتعليمات المشددة تكثر غالباً في النظم المستبدة، حتى تحيط الحياة الحرّة الأبية من جميع جوانبها، فلا يسير الانسان آمناً في ظل تلك التوجيهات والتعليمات، التي قد يخالفها الكثير بعيداً عن أعين أجهزة الأمن القمعية.. ولكن من لم يحالفه الحظ ويقع في

المصيدة وفيما هو محظور في عرف النظام، حتى لو كانت كلمة سبٍّ أو قذفٍ لرأس النظام ومقدساته ومكوناته الأساسية، فله الويل مما جنى ومن ذلك التصرف القولي، الذي يكتسب صفة معارضة النظام، ويتوجب أن ينال فاعله أقسى العقوبات الجنائية، فيكون غالباً ضحية المصير الأسود. فكم ضحية كانت بسبب زلّة لسان، أو ربما بسبب حلمٍ عارضٍ ورؤيا رآها في المنام عن رمز النظام لا تدعو للاطمئنان.

إننا في هذه المذكرات أردنا أن نعكس جزءاً من الصورة الخفية لتعامل دول العالم الثالث مع مواطنيها، داخل المعتقلات والزنازين السرية الكثيرة والمنتشرة في معظم الدول، التي تحكم بالاستبداد والحديد والنار في شرقنا الحبيب.

لقد بدأت قضايانا تُعرض على المحكمة الخاصة مع مطلع شهر تموز. وهذه المحكمة هي أعلى محكمة في الدولة، تحكم القضايا السياسية والأمنية.. وبعد أكثر من تسعة أشهر[٥٨] من الانتظار لمحاكمتنا، وبعد أن علمنا أن هناك تساهل في الأحكام التي تصدرها هذه المحكمة، التي كانت من المحاكم المتشددة طيلة العقود الماضية. وكانت تلك من البشائر والفؤول الحسنة، التي كانت بالنسبة لنا ارهاصاً بقرب الفرج والخروج. ويبدو أن الحصار

---

[٥٨] إنها كانت سبعة أشهر وإنما كتبتها تسعة أشهر في الزنزانة تمويهاً، لإخفاء مكان كتابة المذكرات في حينها، وكذلك رمزاًلولادة حياة جديدة، كما مرّ.

الدولي الذي فرض على البلد، جعل من رئيس الدولـــة أن يراجـــع نفسه في الكثير من القضايا والتشديدات الأمنية والسياسية، لكـــي يعوّض الناس عن التأثير السلبي للحصار، ولكي يخفف من واقعهم المرير الذي فرضه الحصار الجائر، وربما أيضاً كان سبب التغيير، خشية الانفجار الشعبي الذي يمكن أن يحدث، مـــع تلـــك القبضـــة الحديدية التي كان يُحكم بها البلد، فمـــا كـــان منـــه الا أن أصـــدر توجيهاته النافذة للتخفيف على الناس، ومنها تخفيف أحكام المحاكم الخاصة. وهكذا علمنا ممن حولنا أن الأحكام قد خُففت من عشـــر سنوات فما فوق إلى سنة أو سنتين لمثل قضايانا. وإذا بنا نفاجـــأ بيد القدر تخطف رئيس المحكمة، وقبل أيام معـــدودة مـــن موعـــد المحكمة المقرر، بعد أن حكمت على وجبتين من أقراننا قبل أيـــام من وفاته. هكذا يشاء الله تعالى أن لا تتم محاكمتنا ولا نحاكم كمـــا كنا نتوقع. وكان كل من حولنا – من السجناء والحرس والضباط – يقول أن طريق الخروج من المعتقل والفرج النهائي، لابد أن يمـــرّ من خلال المحكمة. وصدر العفو الثاني خلال ثلاثة أشهر ولم يشمل غير المحكومين من السجناء. وشمل من حُكم وأكمل ربع المدة.

ومن المفارقات الطريفة التي حصلت لي في المعتقل، هي أني كنت أتمنى أن أخرج بدون محاكمة.. وأن أرجـــع إلـــى أهلـــي دون أن أُحاكم، لأني كنت أشعر أنه من الظلم الكبير، أن يكون لي ملفٌ مع المحكومين، وكنت قد نذرت في شهر رمضان صيام شهر آخـــر إذا

ما خرجت دون محاكمة. وذلك بعد أن كثرت الشـائعات والأخبـار التي كانت تؤكد خروجنا قبل عيد الفطر بدون محاكمة، وبصـورة عفو يشمل جميع المعتقلين. وكان بعض المتشائمين يهزأ من تلـك الأخبار ومن النذر والأمنية، التي كنا نتأمل أن نُبشّر بها قبل العيد. وكانوا يقولون لنا: لا بد من الحكم بالسجن والانتقال إلى السـجن التقليدي!!. وفعلاً تمّ الحكم على معظم هؤلاء الذين توقعوا أنه لا بد من المحاكمة، طريقاً للخلاص من محنة الاعتقال في سجون الأمن السرية، وقد نقلوا إلى السجن التقليدي فعلاً، ثم شملهم العفو ونحن ننتظر في المعتقل. وقد كنت وقتئذٍ رأيت – كما مرّ – رؤيا مفادها: أني لا أستطيع العودة إلى البيت إلا بعد تسعة أيام، فكنت أشعر أنها تسعة أشهر، وكان الأسبوع الأخير من الشهر التاسع يمضي سريعاً رغم ثقله. وكان صاحبي يعد علي الأيام وهو يقول: لم يبقَ إلا أياماً قليلة ويكمل الشهر التاسع.. فماذا تقول في رؤيا رمضـان؟ وأنـا أقول له: انتظر واصبر يا أخي فكل آتٍ قريب.. وهو يضحك ويقول ربما تسع سنوات! فأقول ربما.. ولكن قلبي يُنبئني بأن هناك بشارة قريبة، ومع مرور تلك الأيام كانت دلائـل العفـو عـن السـجناء والموقوفين تزداد قوة ووضوحاً[٥٩]. ونحن ننتظـر الفـرج وولادة

---

[٥٩] وقد كانت من السياقات المعروفة في ظل الحكم الشمولي، أن العفو عن السجناء حالة معتادة ومتكررة سنوياً، وكان النظام الحاكم يستثمر ذلك للدعاية له. وكان يستغل الأعياد الوطنية كأعياد تموز وميلاد الرئيس والحزب لإصدار قرارات العفو عن السجناء

الحرية والحياة من جديد من بين ظلام القهر والاضطهاد والحرّ السموم والعسر الشديد، والله يعدنا بأن (مع العسر يسراً) رغم أنف المجرمين والظلمة والمتشائمين، ويصدر العفو المرتقب صبيحة اليوم الثاني والعشرين من تموز، ونحن نسمع العفو من المذياع الصغير، الذي دخل القاعة سرّاً قبل أيام، وتضج القاعة فرحاً مع بداية قرار العفو، ونُحرم من سماع النص بكامله بسبب الضجيج، ونبقى في حيرة بعدها لساعات عديدة.. هل يشملنا العفو أم لا ؟!. وتضطرب الأمور، ومع مرور الوقت في ذلك اليوم، ترجح كفة المتشائمين، حيث يبدو أن القرار لم يذكر الموقوفين! ولم يلتفت إليهم!!.

ويسود القاعة جو من التوتر الحاد، وتنطلق الزفرات من الصدور الحزينة والدموع من المآقي المرهقة لسجناء طال انتظارهم، لأنهم على يقين أنهم أبرياء لا يستحقون كل هذا العذاب!! ولكن الله سبحانه لحكمةٍ ما يريد لهم البقاء في هذه الظروف، وللفترة التي يشاء، ومع مرور الوقت تزداد الدلائل بأن هذا القرار كسابقه؛ لا يشمل إلا السجناء المحكومين فقط، وينشب الجدال من جديد بين المعتقلين حتى صلاة الفجر من اليوم التالي، وفي صلاة الفجر قَنَتَ

والمعتقلين ضمن شروط معينة، مما كان يؤدي إلى حالة اجتماعية سلبية، ويشجع على الجريمة وتدهور الحالة الأمنية، وإلى حماية النظام وتوسيع قدرته على ضبط الشارع والحكم.

الإمام ودعا دعاءً طالما كرره راجياً العفو من الله الواسع الحكم العدل العفو الرحيم.. لا من البشر..! مبتهلاً إليه سبحانه أن يرفع عنّا هذه الشدة وهذه المحنة. وبعد صلاة الفجر، حصلت على أذن من المراقب بالاستحمام السريع لتبريد جسدي الذي علته أملاح العرق، ومما زاد من عسر ذلك اليوم العصيب، إن ضابط الموقف جاءنا في الساعة الثالثة صباحاً وأبلغنا بأن العفو لا يشملنا، لأننا غير محكومين، مما ضاعف حالة الضجر واليأس لدينا!!.

وقد كنت أرقب حالة السجناء في القاعة بعد هذا التبليغ... وأعدّ مرات الشجار التي حدثت بسبب اليأس والقنوط التي سيطرت على جوّ القاعة، فكانت أكثر من عشرين مشاجرة إحداها معي؛ حيث تشاجر معي أحد المجاورين لي، مدعياً أني لم أوسع له المكان للنوم! وقد كان نائماً بشكل غير أصولي، فاضطررت بعد أن نمت ساعتين فقط، أن أجلس وأترك له المكان في الساعة الثامنة، فأحرجه تصرفي هذا، وكان رجلاً طيباً فقام هو الآخر وطلب مني أن أنام مرة أخرى.. ولكن هيهات أن أنام وأحداث الليلة الماضية كانت تزدحم في ذاكرتنا وتقض مضاجعنا، واختفت روح التفاؤل التي كنا نبثّها بين السجناء، ونقول لهم: إن اليأس يتعارض مع الإيمان..فقد قال تعالى: ﴿أنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾[٦٠] .

---

[٦٠] سورة يوسف/ ٨٧.

لقد كنا في الأيام الأخيرة –بعد أعياد تموز– نكثر من لعب الشطرنج هروباً من جدال المتشائمين، وقضاءً للوقت، حيث كانت القراءة متعذرة في الجو الشديد الحرارة، وأذكر ليلتها أني قد تعادلت مع سجين مولع بلعب الشطرنج، وقد كنت أفوز عليه في الغالب، ولكنه كان دائم المثابرة للتغلب علي، وكان رجلاً متفائلاً ذكياً.

بعد الساعة الثامنة كنت جالساً في مقدمة القاعة أفكر فيما قاله ضابط الموقف بالأمس – فجر يوم ٢٣ تموز – وكان المراقب يواسي القاعة ويقول: يا إخوتي ثقوا أنكم ستخرجون من هذا المكان! حتى لو لم يشملكم هذا العفو!! لأن هناك دراسةً خاصةً بالقضايا السياسية لشمول الموقوفين مع المحكومين بالعفو، وما هي إلا قضية (تلفون)! ولن نحتاج إلى قرار.. انه تلفون من الرئاسة إلى المسؤولين بأن يطلقوا سراحنا.. وكنا نضحك من هذا التبسيط المتفائل، وقد استغلها المتشائمون وهم يكررون عبارة (أنها مسألة تلفون)! ويقولون: متى نسمع رنّة ذلك التلفون؟؟ بعد سنة أم سنتين؟؟!.

وكنت قد سئمت تلك التعليقات الساخرة، فاضطجعت على أرض غرفة التابوت (البلاط) ونمت قليلاً ورأيت في المنام أن أحد أطفالي

الصغار كان راكباً على ظهري وهو يلعب[٦١]، ولم أستطع أن أكمل تلك الرؤيا واستيقظت على صياح المراقب أن استيقظوا والبسوا ملابسكم.. فهناك اجتماع معنا في المركز الرئيسي مع المدير العام وقد يكون معه الفرج!.

وركبنا السيارة أكداساً، ووصلنا إلى قاعة الاجتماع وإذا بالمدير يزفّ لنا بشرى العفو الخاص وإطلاق سراحنا دون محاكمة أو أية إجراءات... وكنا خلال ساعة واحدة خارج المعتقل، وقد غادرنا ذلك البرزخ المشؤوم.. برزخ العالم الثالث إلى الأبد إن شاء الله تعالى. ثم استأجرت سيارة مع صاحبي[٦٢] إلى البيت وأنا أقول له:

---

[٦١] كان هذا الطفل هو ابني حسن، وقد كان قبل المحنة شديد التعلق بي، إذ كان عمره خمس سنوات وكنت أستذكره في السجن وأتألم على فراقه أكثر من باقي أولادي، حتى صار الكثير من رفاقي يعرفون ذلك.

[٦٢] إنها الحقيقة التي لمسناها، ولكنها كانت أغرب من الخيال.. لقد دعونا الله سبحانه بصدق وحرقة، ونحن نستشعر الظلم الذي وقع علينا خلال هذه الأشهر القاسية، بترويعها ورعبها وجوعها ومرضها وأضرارها المادية والمعنوية والنفسية، فقد كانت ظلمات متراكمة بعضها فوق بعض، كالجبال العاتية تكاد تكتم أنفاسنا وتودي بحياتنا، لولا الإيمان بقدر الله والصبر والسكينة، التي أنزلها الله علينا خلال هذه المحنة.. لقد دعونا الله سبحانه فاستجاب لنا ولم يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، بل كانت رحماته تطل علينا، فتملأ القلب يقيناً ونوراً، ينير لنا الطريق الطويل خلال أيام السجن والمعتقل، الذي لا يشبه غيره من السجون والمعتقلات المعدة للإنسان في العالم المتحضر، والتي تضمن حقّه في الحياة وتحفظ كرامته وتخضع للوائح حقوق الإنسان، تلك الأيام والليالي التي كنّا نعدها ليلة ليلة، ونحن نأمل أن ينتهي ذلك النفق المظلم بضياء الفرج والحرية، مائتان وعشرة أيام بلياليها –وغيرنا مكث أضعاف تلك الليالي المظلمة– ونحن في طابور النفق المهلك، الذي لم يكن يوازيه ما يسمى في الدول المتقدمة، الأعمال الشاقة أو السجون الانفرادية

أو الخاصة، التي كنا نسمع عنها قبل رؤية هذا البرزخ، والذي توجد منه–مع الأسف– نسخ مكررة في معظم بلدان الشرق المقهور، لاسيما تلك التي تعيش حالة النظم الشمولية المركزية الاستبدادية والرأي الأوحد والحزب الأوحد، فينسلخ الحاكم عن شعبه ووطنه، حين يجنح إلى تلك الهاوية وذلك الاستبداد، وتكون هذه السجون السرية حين ذلك، مفردة من مفردات ذلك النظام الفردي وصورة من صوره، وإلا فما أكثر صور الظلم والعبودية في نظم الاستبداد وطبائعه، حين تُقتل الحرية والتعددية في الفكر والسلوك والحياة، وهكذا تتحول الحياة كلها إلى سجن كبير، فيه العبيد والإمّعات الذين لا يستطيعون العيش بغير تقديس الفرد وعبادته والتملّق له والنفاق لحزبه ومؤسساته ونظامه، ويكون هؤلاء العبيد هم أنفسهم ظالمون ومظلومون في آن واحد، ويسحق الشرفاء والأحرار ويحلّ الخراب والقتل والفساد، كما حصل معنا ومع غيرنا في ظل النظام الاستبدادي. لقد دعونا الله – ونحن في السجن وفي أيامه الأولى كما في بقية الأيام الثقال – دعونا على من ظلمنا وأدخلنا هذا السجن السري، لا لشيء سوى الظلم والفتك وتكميم الأفواه وعبادة الشهوات وكسر المعنويات وايقاف دور الكلمة الحرّة..

دعونا على الإنسان المسخ الذي لا يحلل حلالاً ولا يحرم حراماً وهو يظلم أخيه الإنسان، فقد كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه.

ودعونا – يوم الخروج من المعتقل – وبعد ساعة من رحيلنا من هذا المكان المشؤوم، ونحن نستقل سيارة تكسي.. ولقد استجاب الله لنا وأرانا مواطن الاستجابة. ولقد دعوت في نفسي وقلت ونحن في التكسي: اللهم أقهر أعداءنا الباقين، كما قهرت ضباط الأمن ووكلائهم وفضحتهم، بعد شهر من جرائمهم وظلمهم لنا ولهؤلاء الأبرياء الذين كانوا معنا، من الذين تعرضوا للاهانة والذلّ والسرقة والغدر، وعاشوا حياة البؤس والحرمان والسجن، طيلة تلك الفترة التي مرّت، اللهم أحرمهم من أهليهم وأخوتهم وأبنائهم وبناتهم وأطفالهم، كما حرمونا من أهلينا، اللهم افضحهم واخزهم في الدنيا والآخرة.. اللهم آمين. فاستجاب الله سبحانه لنا خلال الأشهر التي تلت يوم الإفراج عنا في ٢٣/ ٧/ ١٩٩٥. وإن المراقب المطّلع على الأحداث التي حدثت بعد شهر من تاريخ هذا الدعاء الواضح، يستشعر جلال الله وقدرته، ويستشعر لطفه ورحمته بالمؤمنين والمظلومين، ويلمس استجابة الله لهذا الدعاء بشموله وتفاصيله، لقد ضرب الله هؤلاء وقصم ظهور الظالمين وأنزل نوازله على الأخوة والأبناء والبنات، فرأينا من قُتل ومن تعوّق منهم، ومن قتلهم المرض الخبيث...

واليوم وبعد الحرب العاصفة التي عصفت بصدام ونظامه وبالبلد كله، لأنه قبل الظلم وتعايش معه، اليوم وتحديداً في يوم المولد النبوي بعد شهر من مأساة سقوط بغداد ١٢ ربيع الأول ١٤٢٤ هـ الموافق ٢٠٠٣/٥/١٣، وأنا في طريقي إلى المطبعة (مطبعة الديوان في البتاوين) وعلى الخط السريع (شارع محمد القاسم)، حيث مكان السجن السري (معتقل أمن بغداد) الذي مكثنا فيه تلك الأيام الخوالي، أرى سجن التابوت ومحاجره والغرفة المظلمة وبناية الضباط وغرف التحقيق، قد تحولت كلها إلى أكوام وركام من بقايا ذلك المعتقل، الذي أُعد منذ مطلع السبعينات - بعد أن كان يمثل دوائر الأمن العام القديم خلال العهد القاسمي - ليستقبل من لا يرضى عنهم النظام بمختلف مشاربهم وتوجهاتهم.

أرى فعل الله سبحانه واستجابته لدعائنا ولو بعد حين.. فلقد قُصف المكان برمته بالصواريخ والطائرات، التي حولته إلى تراب وأصبح أثراً بعد عين، فسبحان الله الذي لا يعجزه شيء وهو السميع البصير. لقد أصبح كل شيء هنا في خبر كان، كأن لم يكن بالأمس ولا كانت لذلك البنيان حول ولا قوة ولا جبروت ولا طغيان، كان أسياده يمارسونه على السجناء والمعتقلين، سواء في ذلك المكان أم في سجن الحياة الكبير، فسلّط الله عليهم من لا يخافه ولا يرحمهم، كما يقول نبينا الكريم ﷺ في الحديث القدسي الذي يرويه عن ربه: <u>الظالم سيفي أقتص به وأقتص منه.</u> ولم يبق من كل ذلك، ومن قصتنا المتواضعة وأحداثها الجزئية التفصيلية، لم يبق من ألم السجن وبشاعة المرض وعصارة الجوع وقهر الذلّ والتعذيب شيء يذكر، بل لم يبق النظام نفسه ولا رمزه ومالكه، ولا بناء السجن نفسه.. لم يبق من كل ذلك غير العبرة والذكرى من تلك الأحداث، فهل سيستفيد الناس حكّاماً ومحكومين.. ظلاماً ومظلومين.. سجّاناً ومسجونين.. من هذه القصص والعبر التي عشناها أنا ورفاقي، والتي عاشها الكثير غيرنا في سجون النظم المستبدة؟.. هل سنعود إلى الحق والعدل لنبني دولتنا، في ضوء منهج الحق والعدل والحرية، لكي يعم السلام والسكينة بين الناس في عالمنا المتخلّف عن ركب الحضارة في شرقنا الحبيب وعالمنا العربي والإسلامي؟.

هل تذكر رؤيا رمضان؟. فأجاب: هل تريد أن تقول كما قال يوسف عليه السلام: ﴿هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً﴾[٦٣] ؟.. لا تنسى أنها تسعة أشهر إلا يومين، فالرؤيا لم تنطبق علينا بالكامل، فقلت: وما رأيك بما كنا نتمنى وندعوا؟.. فقد تحققت الأمنية التي كنا نسأل الله في صلواتنا أن يرزقنا اياها وأن يرزقنا الفرج دون محاكمة.. وقد علّمنا الله سبحانه أنه يمضي مشيئته دون أن نعلم كيف ومتى. فهو حينما يُعطينا يُشهدنا بِرّه.. وحين يمنعنا يُشهدنا قَهره.. كما قال الإمام الزاهد ابن عطاء الاسكندري في حكمه المشهورة، ومنها أيضاً: (ربما تكمن المنن في المحن) وقد لمسنا تلك المعاني والحكم في الزنزانة أكثر من أي مكان آخر. وقد تعلمنا – ونحن في هذه الظلمات – من أسماء الله تعالى ما شاء الله أن يعلمنا. ﴿واتقوا الله ويعلمكم الله﴾[٦٤] ، فقد كان الله سبحانه رحمناً رحيماً لطيفاً كريماً رؤوفاً ودوداً، وفي نفس الوقت علّمنا أنه قاهرٌ جبارٌ منتقمٌ فردٌ صمدٌ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو السميع البصير... كل هذه الأسماء وغيرها كانت واضحة جليةً في تلك المحنة، سواء في (التابوت) أم المحاجر أم الغرفة المظلمة أم (المقبرة)... فسبحانه من إله أراد أن ندخل تلك (المدرسة اليوسفية) فنتعلم منها

---

[٦٣] سورة يوسف/ ١٠٠.

[٦٤] سورة البقرة/ ٢٨٢.

ما شاء لنا أن نتعلم، ويرينا ظلم العباد وغدرهم وتفاهتهم، ووسائل البشر في تعذيب النفوس والأجساد... وقد أراد الله سبحانه أن يرينا انتقامه ممن مكروا بنا أمام أعيننا، وجعل طريق الهداية والوصول يمرّ من خلال آلام الظلم والقهر البشري، ومن خلال سبل الشيطان واستبداد الحكّام وقهر العباد الضعفاء، وجعلنا شهداء على بعض وسائل ظلم البشر للبشر.. إنه عليم حكيم[٦٥].

لم تسعنا الفرحة بعد أن شهدنا فضل الله ومنته، الذي أطعمنا من جوع وآمننا من خوفٍ، بعد هذه الأشهر المريرة.

أن هذه القصة الحقيقية وهذه المذكرات التي عشنا أحداثها، لو كانت قصة خاصة بي وبرفاقي، ولم تتكرر مع الآخرين، لكنت احتفظت بتلك المذكرات لنفسي.. ولكنها قصة الشرق المقهور كله.. انها قصة تتكرر يومياً في كل دول الاستبداد. وهناك الكثير من السجناء الذين تركناهم بعدنا في برزخ (التابوت) وفي ظلمات (المقبرة) وفي غيرها من المعتقلات السرية الكثيرة، التي تعج بها بلدان الشرق العربي.. وهناك كثير من البشر الذين كانوا وما زالوا يعانون ويصرخون وينادون: يا أيها الإنسان في الشرق والغرب،

---

[٦٥] يلاحظ القارئ الإبهام في الإشارة إلى الظلم والنظام الذي ظلمنا، وهو أسلوب يعكس مدى الحذر والخوف والرعب الذي كان سائداً في ذلك الحين، وعدم القدرة على البوح أو النقد أو الفضح إلا بالإشارة وفي الخفاء، رغم اني خففت كثيراً من ذلك الابهام في الطرح بعد عملية التنقيح النهائي للكتاب.

كيف تقبل أن يعذب أخوك الإنسان هكذا، فيحرم من الطعام والنـــوم والحركة والحرية؟ يحرم من الشمس والهواء والصحة؟ ويحرم من رؤية أهله وأولاده؟ و...و... عشرات المخالفات الصارخة لحقــوق الإنسان ولوائحه، التي سجّلت وثبّتت وقتل مــن أجلهــا الكثيــر... ولكنها هنا في دول الشرق ما تزال حبراً على ورق...

فالإنسان يعتقل ويختفي ويقتل لأتفه الأسباب، دونمـــا حصـــانة أو قيمة إنسانية، ودونما قانون يحميه، أو شريعة تصونه وتمنع عنه هذا الظلم، وهذه الممارسات الهمجية، التي لا ندري عن أي جنس من البشر تصدر؟ فلم نسمع أن هناك جنساً مــن الحيــوان يقتــل ويعذب أفراد جنسه، فيما عدا ذلك النموذج الهمجي المتوحش مــن الناس، الذين أعمتهم مصالحهم وشــهواتهم.. فبــاتوا لا يعرفــون لأخيهم الإنسان قيمةً ولا لروحه وزناً ولا قدسية.. لقد قضى ملايين البشر نحبهم في السجون والمعتقلات السرية في دول الاستبداد في الشرق المقهور، دونما سبب سوى إجراءات حماية الكرسي ومنـــع الرأي الحر والنقد المخلص، لكي يحيى الإنسان حياةً حرةً كريمـــةً ويحصل على رزقه بشرف وأمان.

فلا بد للمدعين والمطالبين بحقــوق الإنســـان دولاً وجمعيـــات أن يتنبهوا، وأن يأخذوا دورهم الفاعل للدفاع عن الإنســـان فـــي كـــل مكان، عن حريته وكرامته وروحه وجسده وفكـــره وقلبـــه،، لـــئلا تمتلئ الأرض بتلك الوحوش، ويمسخ الإنسان مـــن هـــذه الأرض،

ويرتكس إلى مهاوي الحيوان وهمجيته. أو تتحـــول الأرض الـــى محضن للفوضى والظلم والفساد، وذلـــك عـــن طريـــق اســـتثمار المتاجرين بحقوق الانسان والمسيســـين للحريـــة والديمقراطيـــة، لفرصة تبني موقف الدفاع عن الانسان ضد الظلم والاستبداد، ولكن لأهداف ومصالح ذاتية وفئوية وحزبية ضيقة ومسبقة، وفي غفلـــة من الزمن وجهل الشعوب والأمم بالكيفية الضامنة للدفاع عن حقّها ومصيرها ومصلحتها العليا ومستقبلها، واستثمار معاناتها وجهادها للتخلص من جور الحكام واستبدادهم، فنكون حينها بين نارين، نار الاستبداد وجحيم الفتن والفوضى الخلاقـــة، التـــي ســـترث ظلـــم الاستبداد المقيت حتماً، اذا لم نتحصـــن بـــالوعي العميـــق والارادة الحرة للتغيير الحقيقي والرؤية الشاملة والفطرة السوية، من خلال امتلاك ارادة التغيير الحقّة، بعيداً عـــن الزيـــف والـــدجل والنفـــاق السياسي والاستغلال المصلحي، الذي يعلو صوته عادةً بعد ســـقوط الطاغوت والحكم الاستبدادي، كمـــا حصـــل فـــي مصـــر وتركيـــا ويوغسلافيا وغيرها من البلدان التي عانت مـــن القهـــر والظلـــم والاستبداد.

وإذا لم يأخذ الإنسان دوره في رفع الظلـــم، بأخـــذه علـــى أيـــدي الظالمين ورفع الظلم عن أخيه الإنسان. فليس هناك غيـــر القـــوة العظمى في هذا الكون، ليس غير الله العظيم، يدافع عـــن الإنســـان ويحفظ التوازن بين القوى المتعارضة في الكون لصالح الانســـان،

الذي استخلفه في الارض لبنائها واصلاحها، بعد أن جعله مكرّماً وحرّاً وعزيزاً، رغم أنف الطغاة والمتجبرين والمستكبرين في الأرض. فلا بد للإنسان على هذه البسيطة فرداً أو جماعة أن يعود إلى الإيمان الصادق بربه، ليطهّر نفسه ويطهّر بني جنسه من تلك الممارسات الوحشية ويبرأ الى الله من الانتماء اليها، وليقوم بدور الاصلاح المنتظر ومقاومة الفساد في الأرض، الذي يحدثة الانسان المنحرف عن سواء السبيل، من الطغاة وأذنابهم.. قال تعالى: (ان أريد الا الاصلاح ما استطعت، وما توفيقي الا بالله، عليه توكلت واليه أنيب) .

وسيرى الإنسان – كما رأينا نحن في هذه المحنة والتجربة الأليمة:

﴿إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوانٍ كفور﴾[٦٦].

١٢/ ربيع الأول/ ١٤١٦ هـ

علاء الدين شمس الدين المدرس

---

[٦٦] سورة الحج/ ٣٨.

تم تنضيد وطبع هذه المذكرات التي كتبت داخل الزنزانة بكـــمية محدودة (عشرة نسخ) بتاريخ ١٠/١٠/١٩٩٥

مكتب المختار
للحاسبات والتنضيد الطباعي

دار الرقيم للنشر والتوزيع
١٤٢٦هـــ - ٢٠٠٥م

الفهرست

الموضوع:	الصفحة

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد ١٦٩٨ لسنة ٢٠١١